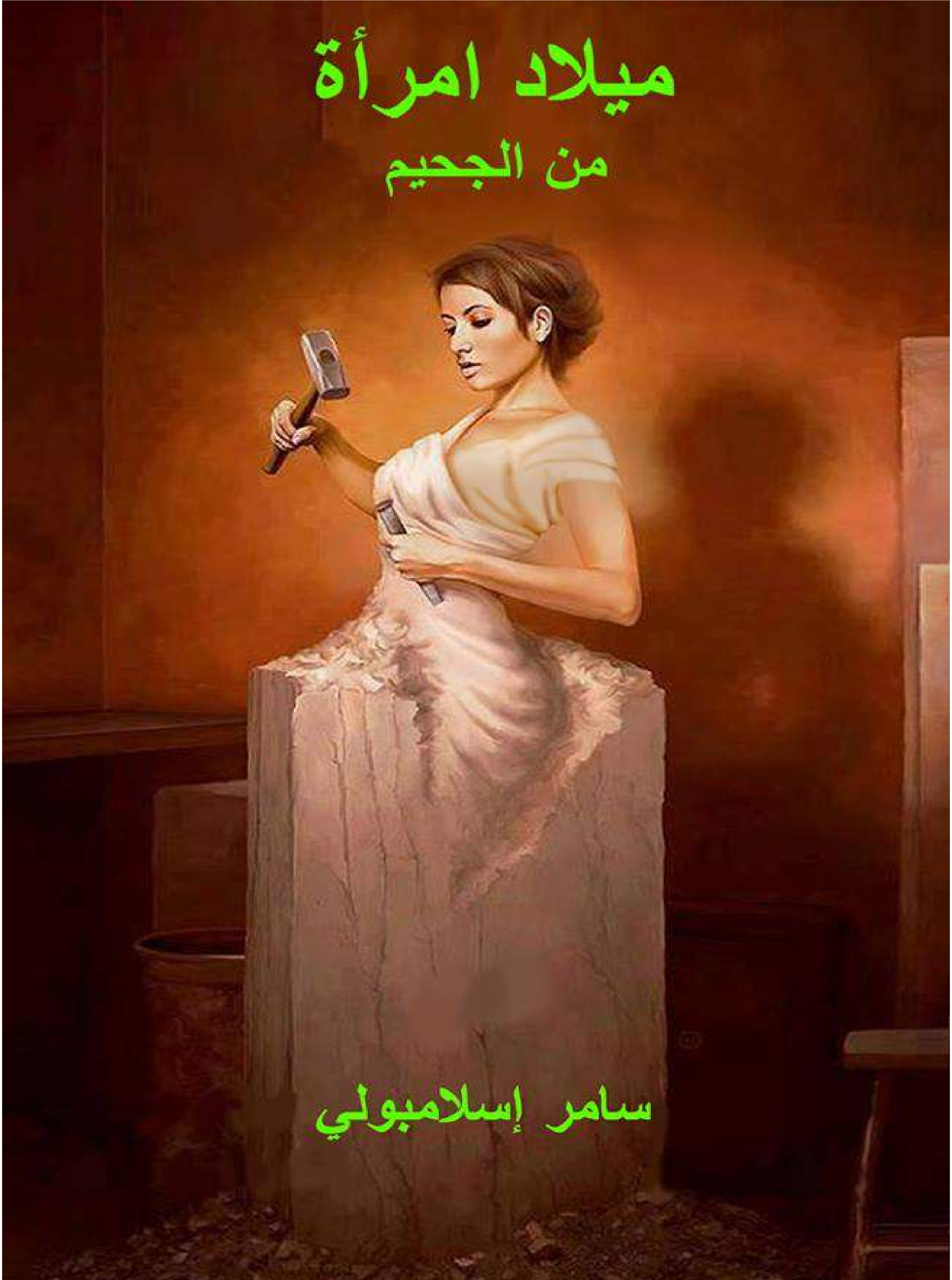
ميلاد امرأة

من الجحيم



سامر إسلامبولي

الكتاب: ميلاد امرأة من الجحيم
التّأليف: سامر إسلامبولي
التدقيق العام والإخراج: سامر إسلامبولي
رسوم الفنانة: سيرين سهيل الفاتح
عنوان المؤلف: مصر - القاهرة
جوال: 0020 -11- 41025253
البريد الإلكتروني: **s.islambouli@gmail.com**

المحتويات

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ
لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ }

(الحجرات (13)

إهداء

إليك أيتها المرأة العظيمة

أمي...

وأختي...

وزوجتي...

وابنتي...

رياحين نفسي

مع تمنياتي لكن بحياة فاعلة وإيجابية وسعيدة.

سامر

يقولون

يقولون إن الكتابة إثم عظيم

فلا تكتبي!

وإن الصّلاة أمام الحُروف حرام

فلا تقربي!

وإنَّ مداد القصائد سمٌّ

فإياك أن تشربي

وها أنا ذا قد شربت كثيراً

فلم أتسمم بحبر الدّواة على مكتبي

يقولون إن الكلام امتياز الرّجال

فلا تنطقي!

وإن الكتابة بحر عميق المياه

فلا تغرقي!

وها أنا ذا قد سبحت كثيراً

وقاومت كل البحار ولم أغرق

يقولون إني كسرت بشعري جدار الفضيلة

وإن الرّجال هم الشّعراء

وأسأل نفسي؟

لماذا يقيمون هذا الجدار الخرافي!

بين الحقول وبين الشّجر

وبين الغيوم وبين المطر

وما بين أنثى الغزال وأنثى الذّكر

ومن قال للشّعر جنس!

وللنّثر جنس!

وللفكر جنس!

ومن قال إن الطّبيعة

ترفض صوت الطّيور الجميلة.

د. سعاد صباح

تقديم الأستاذ
ندرة اليازجي

صديقي سامر:

قرأت قصتك (ميلاد امرأة) بسرور بالغ، وإرادة فاعلة وهادفة، وفي هذه القصة، رأيتك؛ تسرد بدقة وتسلسل منطقي المأساة التي عانتها امرأتان تزوجتا برجل واحد أساء إليهما إساءة كبرى، بسبب اعتقاده المطلق بعقدة الذّكورة. ولقد أنهيت هذه القصة بدراسة النّتائج السّلبية المؤلمة الملازمة في حدودها الضّيقة للإرث الثّقيل والمضني، الذي خَلَّفته لنا التّربية الانفعالية، التي أحدثت خللاً في تكاملية الرّجل والمرأة، وأطاحت بإنسانيتهما المشتركة والمتفاعلة على نحو إيجابي.

وفي هذا المضمون، جعلت من الخلاصة المرجوة توجيهاً وإرشاداً لكل امرأة تعاني ضغوط التّربية الانفعالية، التي فُرضت عليها بسبب الجهل المسيطر على الأسرة والمجتمع، لتبلغ الوعي والحُرِّيَّة اللذين يمداها بالمعرفة والإرادة الواعية، للانتقال أو التّحول إلى الفاعلية، التي توطد أسسها على العقلانية المتسامية، ووجهة النّظر الإيجابية، والقدرة على حسن الاختيار، وفي هذا المنظور، سعيت جاهداً إلى اختصار مضمون هذه القصة، التي تهدف إلى تحقيق تربية نفسية واجتماعية راقية تبنى عليها الشّخصية المتكاملة لدى كل من الرّجل والمرأة، بالعبارة التّوجيهية والتّربوية الرّائعة التّالية: (***نحو حياة جديدة إيجابية ملؤها المحبة والتّفاؤل والسّلام والصّداقة الملازمة للإخلاص الملتزم***).

في هذه القصة، التي تتألق فيها أهمية التّربية الإنسانية الفاعلة لكل من الرّجل والمرأة، رأيتك تعالج المآسي الاجتماعية، والآلام النّفسية والجسدية، المحقرة للقيمة الإنسانية، والنّاتجة عن إشراطات وقيود التّربية الانفعالية، وعن المشاكل الاجتماعية المعقدة والمضللة، التي أدَّت إلى تعطيل العقل، ونفي الوعي، وإلغاء العاطفة النّبيلة، والصّداقة الحقيقية، وانعدام المحاكمة، بوعي المصلح الاجتماعي، وبعقل عالم النّفس. لقد كنت في هذه المعالجة، مصلحاً اجتماعياً يدرك وطأة الشّرور النّاتجة عن المشكلة الاجتماعية القائمة، التي تُؤكِّد الفروق العقلية والنّفسية بين الرّجل والمرأة على نحو فصام، وتضع حواجز مانعة بينهما على كل المستويات، وتحول دون إقامة علاقة تكاملية، وتعطل مفهوم المساواة الجوهرية بينهما، وتُؤدِّي إلى صراع مستمر وعدوانية خفية ومستترة، وتلغي الآخر الذي هو المرأة.

في هذه القصة، رأيت فيك إنساناً حكيماً تتحدث عن وُجُود الإنسان بوصفه وُجُوداً واعياً لحقيقته، وحراً من القيود والإشراطات التي تحمل في جوفها التّعاسة، والكآبة، والإحباط، وانعدام القيمة والمعنى.

رأيتك تتحدث عن الواجب الأخلاقي، الملازم للواجب الاجتماعي، الذي يجعل من هذا الوُجُود الواعي معرفة أو حكمة، التّمييز بين الإعجاب الصّوري، والإعجاب الحقيقي المتوافق مع سعادة الحياة الزّوجية. هذا، لأنَّ الإعجاب الحقيقي يتمثل في الحب الذي يقوم (كما تقول) على الاحترام والتّوقير والإعجاب الحقيقي والالتزام المتصل بالإخلاص للقيمة والمعنى الإنساني والرّوحي المضمونين في العلاقة الثّنائية الكامنة في الشّخصية

الإنسانية، الممثلة بالصّداقة، التي تُؤكِّد على فهم الآخر، والاعتراف والقَبول به.

في هذه القصة الواقعية، التي نلمس ونرى آثارها السّلبية السّيئة والمتجسدة بالمآسي الحاصلة عن العلاقة الزّواجية الانفعالية، التي تسمح للرّجل بالإساءة إلى مفهوم الذّكورة والأنوثة معاً. رأيت فيك عالم النّفس الذي يرشد الآخرين إلى تطبيق قواعد سُلُوك ومبادئ أخلاقية وعقلية وروحية، وذلك لكي يستنير كل من الرّجل والمرأة ويقدر الكائن الإنساني الذي وهبه الله شعاعاً من نوره، وفي دعوتك إلى تحقيق هذه القواعد والمبادئ، حدثت الاستنارة التي دعتك إلى تجاوز المفاهيم الخاطئة، والتّقاليد الموغلة في العصبية والأسر التي تقيد الإنسان، وتخضعه لأنماط أو نماذج خارجة عن نطاق العقل والرّوح.وفي سبيل تحقيق إنسانية الرّجل والمرأة، رأيتك تدعو كلاً منهما إلى الأخذ بالقواعد والمبادئ التّالية، التي تساعد المرأة بشكل خاص لتحقيق تربية إنسانية سامية، تبلغ المستوى اللائق بالكرامة الإنسانية.

رأيتك تتحدث عن العقل الواحد الماثل في كيان الرّجل والمرأة سواء بسواء. فالمرأة،كالرّجل، تتعلم، وتفكر، وتعقل، وتعي لسبب أصيل هو أنَّ العقل ليس ذكرياً وليس أنثوياً. وفي قولك هذا، تُؤكِّد قانون الثّنائية السّائد على كوكب الأرض، وتؤيد المساواة الجوهرية التي تُؤدِّي إلى تحقيق تكاملية قطبي الإنسان، الرّجل والمرأة.

إضافة إلى وحدة العقل لدى الرّجل والمرأة، وقانون الثّنائية الظّاهرية والوحدة الباطنية الماثلة في تكامليتهما، أخذت تتحدث عن مبدأ التّعديل، الذي يشير إلى تجاوز الماضي، والتّعامل مع الحاضر. وفي هذا التّجاوز، أشرت إلى تعامل الإنسان مع الإمكانات المتوفرة ليخطو في تعامله مع الممكن، خطوته الأولى. وفي هذا التّعامل، يسعى الإنسان، الرّجل والمرأة، إلى الإسهام في العمل الاجتماعي لينعتق من الأفكار الضّاغطة التي ساورته، ويتحرر من أنواع الكبت، و الإحباط، و الاكتئاب. **والحق إن تأكيدك على الإيمان بالله، وبالتّالي الإيمان بالنّفس،** مبدأ يُحفز الشُّعُور بالقوة، ويحدث الطّمأنينة والسّعادة والمحبة، الأمر الذي يُؤدِّي إلى إبداع الفاعلية.

في هذا الإطار الحافل بالقواعد والمبادئ المثالية، ينتقل الإنسان، وقد صار يعي حقيقته، وواقعه عبر مُحاكمة سليمة، أو أقرب ما تكون إلى السّلامة، وهكذا، يبدأ الإنسان بتأمل ذاته، ومعرفة خفايا لا شُعُوره ليحدث تكاملاً بين وظائفه النّفسية. وفي هذه الصّورة المضيئة، تدعو الإنسان المتألم إلى توقير الحياة، وتأمل جمال وحدة الوُجُود الماثلة في التّكامل والانسجام.

الأستاذ
ندرة اليازجي
2008

تقديم

الأستاذ الدكتور فيصل الزّراد

الأستاذ العزيز سامر

قرأت قصتك الجميلة في إخراجها، والعميقة في مدلولها، وطرحها لأهم قضية من قضايانا الهامة والمعاصرة، وهي قضية المرأة، الأم، والزوجة، والابنة، والصديقة، والحب، والحنان، والعطف..

وقد سرَّني كثيراً نظرتك التفاؤلية والدعوة إلى التكامل والإصلاح والتعاون، والحماس وبذل الإرادة والصبر والتأمل ومراجعة الذات، والدعوة إلى المحبة والسلام، وإنه لشيء عظيم أن يدعو الإنسان وبأسلوب منطقي عقلاني نفسي تربوي اجتماعي، وعلى مستوى من الرقي من أجل العمل على تحقيق التوازن والتكامل بين شخصيتي المرأة والرجل معاً، وكذلك وضع حلول لمأساة المرأة العربية، وما تعانيه من قهر وظلم وآلام بسبب التخلف والجهل، وما توارثناه من عادات وأفكار بالية كان لها أثر سلبي على أسرنا ومجتمعنا والحياة بشكل عام، ومما لا شك فيه بأن القصة مليئة بالمبادئ الإنسانية والأخلاقيات التي لو تأملها الإنسان، وعمل بها لكانت هي السبيل إلى الخلاص من

هذه الكوارث، أو المحن التي يعاني منها كل من المرأة والرجل، والمرأة تحديداً، وأجمل ما في القصة عدم عزل قضية المرأة عن قضية الرجل، فكل منهما مكمّل للآخر بعمله، وفكره، وثقافته، وعاداته، وقيمه، وأهدافه..

لقد استوقفني يا أخي سامر عنوان القصة (ميلاد امرأة من الجحيم) _ وأنا أعلم ما تعنيه بذلك_ ولكنني سألت نفسي كيف تُولد المرأة من الجحيم؟ فالولادة تعني الجِّدة، والتطور، والحداثة، والخير، والمرأة تعني الحب والعطف والرقة وغيرها ...، والجحيم النار المستعرة التي لا تُبقي ولا تذر ممّا تلد به المرأة من أخلاق، ومُثل، وإنسانية، وحب وإخلاص، وغير ذلك.

وكذلك توقفت عند بعض الكلمات، أو المفاهيم الجميلة، مثل التعايش، والتماسك، والنهضة، والعلم، والأخلاق...، ووجدت أنّ هذه المفاهيم قد نادى بها كثيرون، وتكررّت كثيراً في أدبيات القرن العشرين، وما بعده، ومن المؤسف أنه لم يعد لهذه المفاهيم وقع إيجابي في نفوس بعض الناس ، وفي عقولهم ، وكما تعلم إننا نعيش في مجتمع متخلّف، مجتمع ذكوري يسوده الجهل والأنانية، وحُب السلطة.

لقد أشارت العالمة الوجودية (سيمون ديفوار) في كتابها (عن الجنس الآخر) (1962) وكذلك الدكتورة (نازك الملائكة) و(نوال السعداوي) (1970) والدكتور (مصطفى حجازي)، وغيرهم إلى قهر المرأة في الوطن العربي، وتطرقوا إلى ما يشبه هذه المفاهيم الإيجابية المنطقية، والعقلانية، ولكن لم يكن هناك حياة للقارئ أو للمستمع، وهذا لا يعني أنه ليس لهذه المفاهيم من قيمة أخلاقية واجتماعية ، وإنما يعني أن الواقع الذي يعيش فيه الإنسان العربي بعيداً تماماً عن مثل هذه المفاهيم، وما تحمله من قِيَم يُنادي بها الناس الشرفاء فقط.

من ناحية أخرى أرى ــ يا أخي سامرــ **بأن المنهج الذي سلكته في طرح المشكلة، وفي الحوار والنتائج، هو منهج علمي منطقي يحوي في طياته أحدث المناهج الطبية، والنفسية، والاجتماعية التي تُفيد في مجال تشخيص القضية، وعلاجها، أو الوقاية منها**، ولكن أرجو أن تسمح لي ببعض الآراء التي راودتني حول قضية المرأة، وقد أشرتُ إليها في كتابي تحت عنوان (كيف يمكن للمرأة أن تكون سويّة في مجتمع غير سويّ مواجهة صريحة).

إن المرأة العربية لا إرادة لها، ولا حرية؛ وذلك بسبب عوامل القهر والكبت والحرمان، والإحباط والعبودية ...؛ ولأنها تعيش في مجتمع ذكوري مستبد ومسيطر، وجاهل أحياناً، فكيف لهذه المرأة أن تبحث عن التكامل والتعاون مع الرجل؟ وهي إنسان لا حرية لها!، ونُطالب بشخصية متكاملة لدى مخلوق لا إرادة له!، ونحن نعلم أن لا أخلاق، ولا تطور، أو إبداع أو نهضة دون حرية وإرادة، كما لا شخصية بدون أخلاق.

صحيح أنّ المرأة تملك الكثير من الطاقات النبيلة الخيرة، والإبداعية التي تنتظر فرصة الاستفادة منها لتحمل المسؤولية، ولكن الرجل مازال مصرّاً في قرارة نفسه على أنها إنسان سلبي، ومستهلك، وتابع له، وعليها أن تبقى في الجحيم الذي صنعه لها الرجل حتى يحافظ على غطرسته، واستبداده، ويعيش حالة بارانويا العظمة، والأوهام بأنه هو المنتصر، وهو القوي، والمسيطر، والبطل.

إن المرأة العربية حيث كانت في الوطن العربي تُعاني من الظلم، والاضطهاد، والقهر، ومن القلق حول حاضرها، ومستقبلها، وزواجها، وطلاقها، وعملها، ودراستها، وسعادتها، وشقائها...،

وتَحدَّثت إلى طالباتي في الجامعة عن قلق العنوسة، وتَبيَّن لي بأن حياة المرأة العربية والإسلامية بشكل عام عبارة عن سلسلة من المخاوف، ومن عدم الأمن النفسي المزمن، والذي يصعب تشخيصه، أو علاجه، بسبب تعنّت الطرف الآخر الذي يرفض التشخيص، والعلاج.

لهذا؛ فلا أمل، ولا خلاص من أفكار وعادات بالية توارثناها جيلاً بعد جيل، وفَرضت على المرأة أن تصبر وتتحمل هذا الجحيم لتُحافظ على شيء من توازنها النفسي، والعقلي، ولتستمر هي وأطفالها في الحياة.

والحقيقة _ يا أستاذ سامر_ إن المرأة العربية مَهما بلغت شأناً تبقى مُقيّدة بقوانين وأنظمة وعادات، وقيم بالية، وممنوعات يَفرضها الرجل على المرأة، وهذا القيد والممنوعات يردّها إلى حالة من القهر النفسي، والسلبية. إنها ممنوعة بالقوة من أن يكون لها أخلاق مُعيّنة، وهي كما تقول نازك الملائكة: ليست خَيّرة ؛ لأن خيرها إلزامي، وهي ليست شريرة؛ لأن ما ترتكبه من شر ليس إلا نتيجة هذا القيد، أو نتيجة الإغراء القوي الذي تملكه الممنوعات، ففي كل قيد، أو كل ممنوع

استهواء للفرد في أن يكسر هذا القيد، وأن يخرج عنه (حتى لو كان مفيداً)، ونحن عندما نُقيّد المرأة بالممنوعات، فهذا يعني اتهام ضمني لها بسوء الخلق، اتهام يتطلب الضبط، والمراقبة من قِبَل الرجل، ولعلنا نلاحظ بأن المرأة التي تُتهم بسوء الخُلق غالباً ما تنتهي إلى أن يسوء خُلقها!.

لهذا؛ فإن عملية تشخيص مشكلة المرأة وعلاجها تحتاج إلى جرّاح نفسي ما هر يقف عند جذور المشكلة المزمنة، والتي لا تصلح إلا إذا صَلُح الطرف الآخر.

ولهذا؛ فإن العلاج سيكون صعباً مهما تعددت الزيارات للطبيب.

القصة في مُجملها مُفيدة لكل قارئ، والكاتب يطرح مشكلة هامة ومعاصرة ، تمس حياة كل إنسان، وقد أجاد في عرضها، ومحاولة علاجها، وهي جديرة بالقراءة والتفاعل معها.

أ.د.فيصل الزّراد 2008

مُقَدِّمَة

شَيَّد المجتمع الإنساني منذ أقدم العصور أركان نواميسه الوضعية، وتلقّى فيضاً من الوحي السماوي أرسى قاعدة راسخة تضمن السعادة لكل الناس في كل زمان ومكان، وكان هذا ديدن أسلافنا الذين تنعَّموا بالدفء الحميم الناجم عن تضامن العضوية الجسمية والنفسية تحت لطائف الروح؛ بَيد أن المسيرة التاريخية أفضت إلى انحراف هائل عن الصراط الذي خطّه الخالق ﷻ لخير مخلوقيه، واليوم بوسع كل باحث حَصيف تشخيص أزمة الإنسان بشقيه الآنفين على أنها أزمة ثقافية بامتياز، نتجت عن تراكمات آبائية، توارثتها الأجيال وسرت عدواها من مجتمع إلى آخر، فصارت المفاهيم الثّقافية الفيروسية من مقومات الثّقافة العربية الإسلامية، تنثر ذَيفان بذارها في كل مجتمع جديد من خلال المؤسَّسات الثّقافية والاجتماعية، سواء أكانت التّعليمية في المدارس، أم الدِّينية في المعابد و المساجد والكنائس، أم التّربوية من خلال الأسر، أم الإعلامية من خلال أنواعها، ووسائلها كافة، كل ذلك يضخ المعلومات والمفاهيم في نفس الإنسان، إلى أن أصابته التّخمة جراء تزاحم وضغط المفاهيم والأفكار المتضادة، وزاد الطّين بلة الانفتاح المعلوماتي على العالم كله، حيث

صار الإنسان أشبه بحاوية، تُرمى فيها النّفايات الفكرية والفنية، وما سوى ذلك من قاذورات، فيتلقفها صاغراً على غير إرادة منه *!*.

والإنسان العربي والإسلامي يعيش على هامش زمانه، لأنه يجتر الماضي، ويتمثل أحداثه، فتجد أحدهم أموياً، وضده عباسياً، وآخر فاطمياً... الخ، ثم أتى هذا الإنسان العربي والإسلامي الذي يئن تحت أحمال التاريخ ليقرع أبواب العصر الحالي، مُصرّاً على استخدام أدوات ومفاهيم الصّراعات التّاريخية في ميدان الصّراعات القائمة، معتمداً بجور لا ينتهي مقاييس ومواصفات تاريخية، لتقويم أفكار ومفاهيم معاصرة!.

هذه الثّقافة الموروثة، . ويا للأسف . *هي التي تُنتج رجالاً ونساءً يحملون الفيروسات الثّقافية داخلهم، فتنخر في نفوسهم وتُحوّلهم إلى دمى متحركة، لا يسمعون، ولا يبصرون، ولا يشعرون..! فإذا تكلم أحدهم تجده يقول: قالوا لي!. وإذا سألته لماذا لم تُنجز العمل الفلاني؟ قال: لم يطلب أحد مني ذلك!. وإذا قلت له: لماذا لم تقدم من تلقاء نفسك؟ قال: لم يخطر في بالي!. وإذا قلت: لماذا لم تساعد أباك أو أخاك أو صديقك في أداء عمل ما؟ لقال لك: ظننت أنّه لا يريد المساعدة!.*

قائمة طويلة من الأجوبة السّلبية، مُدَّخرة ومُهيأة سلفاً في عقلية الإنسان العربي والإسلامي الذي يختار غالباً الجانب السّلبي، ويخلد إلى الكسل، ويهرب من تحمل المسؤولية، ويجتنب الأخذ بزمام المبادرة، ويرمي أخطاءه على غيره، ويُفسر ما يصيبه بالقضاء والقدر! .ما أفضى في نهاية المطاف إلى كينونة تركيبية حَجَّرت العقل العربي، فيما يقتضي التطور الخلاّق عقلاً تحليلياً صرفاً، وكانت المرأة أشد تأثراً بهذا المرض الفيروسي من الرّجل، لأنها مُرتبطة ثقافياً بأبيها وأمها وأخوتها، وَمن ثم زوجها، فهي مَصب ثقافي لجميع أفراد الأسرة من الذّكور، إضافة للمجتمع، فزمام قيادتها ينتقل من ذكر إلى آخر (من أبيها إلى أخوتها إلى زوجها حتى جارهم في البيت!) كل ذلك يحدث والمرأة المستلبة المستباحة لا تُشارك بشيء، ولا ترفع صوتها مستنكرة، أو معترضة، بل تعمل على نقل هذا الفيروس الثّقافي القاتل إلى الأولاد، من خلال جرعات التربية الملوثة منذ نعومة أظفارهم ذكوراً وإناثاً .

نقول ذلك لأننا ندرك حجم تأثير المرأة على تحديد مصائر الأجيال ، ونحن لا نغمطها حقها فالمرأة قطعت شوطاً بلغت فيه أعلى المراقي، وهذا مما لا ينكره عليها إلا كل جاهل ، وقلوبنا مُترعة بالفخر للخطوات الجبارة التي قطعتها المرأة في كل الميادين لكن كل

ذلك_ مع تقديرنا العميق له_ لا يكفي، فالمرأة تحمل مسؤولية نشر الفيروسات الثّقافية بصورة كبيرة، لأنها الوسيط الأساسي التّربوي للأطفال!، وقد قيل: إن عَلّمت رجلاً تكون قد علّمت واحداً، بينما إن علمت امرأة تكون قد علمت جيلاً.

ومن هذا الوجه، تبرز أهمية تحرك المرأة نحو العلم والثّقافة من منطلق إنسانيتها، ومن منطلق أنها مَعنّية بمقام الخلافة في الأرض {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً} البقرة30

و مَعنّية بالتّكريم{وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ } الإسراء70 ومَعنّية بالرّسالة {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً } الأعراف ، و مَعنّية بالمسؤولية{وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ } الصافات24.

وصدق الشاعر الذي قال:

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراق

فماذا تنتظرين! أيتها المرأة! لتصيري إنسانة مكرمة مسؤولة؟ إلى متى تَقبعين في كهوف الماضي السوداء، وتهربين إلى داخل نفسك؟ إلى متى تختفين وراء ظهر الرّجل؟ إلى متى تقولين إنَّ الرّجل هو مسؤول عن تخلفك! يأمر وينهى ويقرر عنك؟ متى تخلعين أغلال الشُّعور بالدّونية تجاه الرّجل؟

متى تشعرين أنك تملكين عقلاً وإرادة حرة؟

لماذا ؟ وإلى متى ؟ ألا يكفي!؟..

ألا تعلمين أنَّ الذكر والأنثى متساويان حين تُعرض أعمالهما أمام القانون الإنساني والإلهي، فلا يشفع لك أمامهما أب أو أخ أو زوج، ولو كنت تُنفذين رغبتهم على غير إرادة منك، فأنت في النّهاية وحدك مسؤولة عن عملك.

هيا! أيتها المرأة العظيمة شَمِّري عن ساعد الجدّ، واخلعي ما لايليق بك من أردان الذّل والخنوع، وابتعدي عن الغفلة، وأزيلي هذه الابتسامة الباهتة! لتحل محلها نظرة جادة، وابدئي تَسنم معارج العلم بجناحي فكر ثاقب مجرد عن الآباء والأكثرية، والأهواء والشُّعور بالدّونية والعجز، الأنثى ليست شعاراً للضّعف والعجز والجهل والتّخلف! الأنثى ليست شتيمة توجه إلى إنسان! اعلمي! أيتها المرأة العظيمة! ***إن العلم ليس له جنس، وكذلك العقل. فلا يُوجد عقل ذكر، وآخر أنثى!. العقل واحد، وينمو بالعلم والإدراك والوعي والتّفكير***، وهذه *الأمور متاحة للجميع*، ونتائج المتح منها تحدد روائز الحكم على عقول وارديها ، *وليس للذكور أن يمنعوك من ذلك! لا تصدقي كل ما يُقال لك. اجعلِي العلم نبراساً هادياً و مقياساً للأمور*، وميزاناً *للأفكار، وكنف الأفكار هو الواقع*، ولا شيء غير

الواقع(الآفاق والأنفس)، *فإياك أن تُبعدي تفكيرك عن الواقع، وتسبحي في الأوهام، فتضلي وتنخدعي*، ويسهل قيادك!

و لقد واتتني الشجاعة على نشر هذه القصة على ما تحفل به من هنّات ليست باليسيرة حسب معيار القصة أدبياً لأنني أردت وبكل إخلاص ومحبة أن تكون مَطيّة تساعدك في سعيك المشرف الحثيث للتّخلص من براثن الماضي، والعيش في الحاضر، بصُورة فاعلة ايجابية، ولا ريب في أن *الخطوة الأولى منك ستنند عن إرادتك الواعية*، وينبغي *أن تبسطي يديك تحت كل سماء ملبدة بغيوم العلم والتّفكير*، إذ لابد أن تغيثك بالثر النمير، ولو بدت لك مكفهرة للوهلة الأولى، ولهي خير ألف مرة من ينبوع رقراق يزخر قعره بالتماسيح المتوحشة التي تفغر أشداقها الجائعة لتلقف الغافلين عنها، إن امتلاك أوليات التفكير العلمي *والحوار البناء مع الأصدقاء، وتبادل وجهات النّظر*، طرائق مضمونة وسريعة لتحديث المفاهيم، *وحذف الماضي دون أسف عليه، وسرعة التّحول من السّلبي إلى الإيجابي، فعمرك لا يتسع للتّأجيل والتّسويف، وفرصة العمر مرة واحدة، ولا تنتظري من أحد أن يُقدم على مساعدتك إن لم تطلبي ذلك. ولا تتخلفي عن الركب*، ***ففيم الانتظار؟ وقد انطلق القطار .***

هيا يا صديقتي:

لنقرأ هذه القصة الشائقة ! ولنعش أحداثها ثقافياً، نتحاور، نتفق ونختلف، نضحك ونبكي، نقبل ونرفض... الخ. هذه سنة الله في الوُجود التي أبدعت (اللوحة الكونية) وَفق ثنائية مذهلة تنضح بغنى الرؤى الخلاقة ، لقد أودع البارئ العظيم أسرار حسنه في قلبك الرهيف أيتها المرأة ، وأراد للكون أن يكون جميلاً كعينيك ، طاهراً كنفسك، فإياك أن تنظري إلى الحياة من منظار أسود، لأنه سوف يُريك الأمور كلها بذلك اللّون الوهمي، الذي لا وُجود له إلا في ذهنك، انزعي هذا المنظار؟ وانظري إلى رونق وجه الحياة الزاخر بالبهاء، تمتعي برؤية كل الألوان على طبيعتها الثّنائية المتكاملة في الوُجود، فأنت ككل كائن عاقل مكلف عليك أن تختاري لوحتك، وتعيشي دورك في هذه التناغم الكوني العظيم، بصُورة جميلة وسعيدة من خلال ما رسمت. **لأنَّ السّعادة اختيار، وليست اقتباساً، والفاعلية سُلُوك ومبادرة، وليست انفعالاً وردود أفعال.**

أيتها المرأة العظيمة! انزعي عنك صفة الانفعال التي صارت صفة أنثوية لازمة لك في الثّقافة، وانتقلي إلى التّفاعل والإدراك والتّعقل لتصلي إلى الفاعلية والتّفكير والعلم والنّهضة.

وما ذاك إلا لأنني أحببتك أيتها المرأة كما لم أحب أحداً في حياتي، وإني لأسأل الله تبارك وتعالى أن يُنعم عليك بالفاعلية والسعادة والإيمان والجمال، وأن يحفك بعنايته.

وفي الختام أشكر الأستاذين الكبيرين لقيامهما بتقديم عملي هذا للقراء الأعزّاء الذين يملكون حقيقة الحكم عليه.

وفي النّهاية، نحن أبطال البداية لنصنع أحداث النّهاية.

المؤلف

2008

المدخل

تصاغر وجارَ الكون على سعته في صدر أبي زيد فنضح مفاعيل أناه إلى سواه ، وصعد من قلبه المترع بالأرزاء زفرات بلواه ، أمام مرآته، أفزعه أن يكبر من حيث تصغر الأيام ، وكعادة النفس حين تهدسها سجف الظلام تلوذ بوميض الذكريات الخاطف الذي يضيء ردهاتها القصية الموحلة لحظة من الزمان، فتستاف وشل التأسي من غدق مسارب الأمس كاحتمال لغد لم يتحقق ، أو كحتمية ليوم خنقته العاديات على ناصية أقرب مفارق الحلم العصي ، وأبو زيد لم يكن ذلك الكاتب النحرير في ديوان القدر ، و في دفاتره الداخلية الغرثى نقرأ أنه رأى نور الحياة في قرية صغيرة، ونشأ في أسرة فقيرة تقتات الفُتات من خلال العمل في جني محاصيل الأغنياء، وعاش أبو زيد طفولته في هذه القرية المنسية لا تتجاوز حياته دائرة الحقول التي يعمل فيها والده، وعندما كبر التحق بمدرسة القرية وجذوات الحماس تتقد في قلبه الصغير، ولكنه لاقى صُعُوبة بالغة في الانتقال من صف إلى آخر بسبب سوء التّدريس، وغياب المعلمين المتكرر، وضعف الأسرة علمياً وثقافياً، وضيق الأفق الذي كان مخُيّماً على القرية عموماً، فترك أبو زيد المدرسة، والتحق بالعمل مع أبيه في الحقول، ومضت الأيام والسّنون، وكبر أبو زيد وبلغ مبلغ الشّباب، وقَلَّ العمل الزّراعي في القرية، نتيجة زحف العمران والمدينة، وتشييد المعامل محل الأشجار المثمرة، ومع استمرار زحف الإسمنت الغاشم انقرضت الأشجار والبيادر، وتقلصت فرص عمل المزارعين، وازداد عَدَدُ العاطلين عن العمل، وطال انتظار أبي زيد حتى أظلمت الدّنيا في عينيه وضاقت الأرض عليه بما رحبت، فهو لم

يستعد أو يفكر بوقوع هذا المُصاب، وخرج هائماً على وجهه يتسكّع بين أَزقّة القرية القديمة لا يدري أين يذهب أو ماذا يريد، وإذا به يلتقي مجموعة من رفاقه أيام الدّراسة الأولى، وكان حالهم مثل حاله، فالتقت العيون، وارتسمت ابتسامة صفراء على الوجوه المريضة وتصافحت الأيدي الخشنة.

قال أبو حسين: مرحباً يا أبا زيد كيف حالك؟

أجابه: حالي مثل حالكم كما ترون أتسكع في الحارات لا أدري ماذا أعمل!.

قال آخر: تعال اجلس معنا واسمع ماذا يقول أبو حسين؟

فجلس أبو زيد، واستمر أبو حسين في حديثه، الذي كان يتكلم به قبل مجيء أبي زيد قائلاً: وهكذا ساقتني الأقدار إلى المدينة وقعدت في السّاحات العامَّة مع مجموعة من الرّجال ننتظر أن يأتي أحدهم ويأخذنا لنقوم بالعمل عنده في نقل الأثاث أو ترحيل مخلفات البناء وما شابه ذلك، وكنا مستعدين لكل عمل عضلي، فَوُفقنا حيناً وأخفقنا أحياناً، وكأن أرزاقنا معلقة بمخالب الطير، ولكن الرمد خير من العمى، وما فاز باللذة غير الجسور. إن بقاءنا هنا لن يعني سوى الموت المحتم، فعلام نستسلم لليأس والقنوط، وبوسعنا صياغة مصائرنا بسواعدنا ؟

قاطعه أبو زيد قائلاً: وماذا يمكننا أن نفعل ؟

قال أبو حسين: ليس أمامنا سوى أن نقصد المدينة لنعمل معا في ورشات البناء، ورحلة الألف ميل تبدأ بخطوة .

راقت الفكرة لأبي زيد، وناجى نفسه قائلاً: إنها فرصة سانحة يمكنني أن أهتبلها لأشاهد معالم المدينة وتقدُّمها وإغراءاتها.

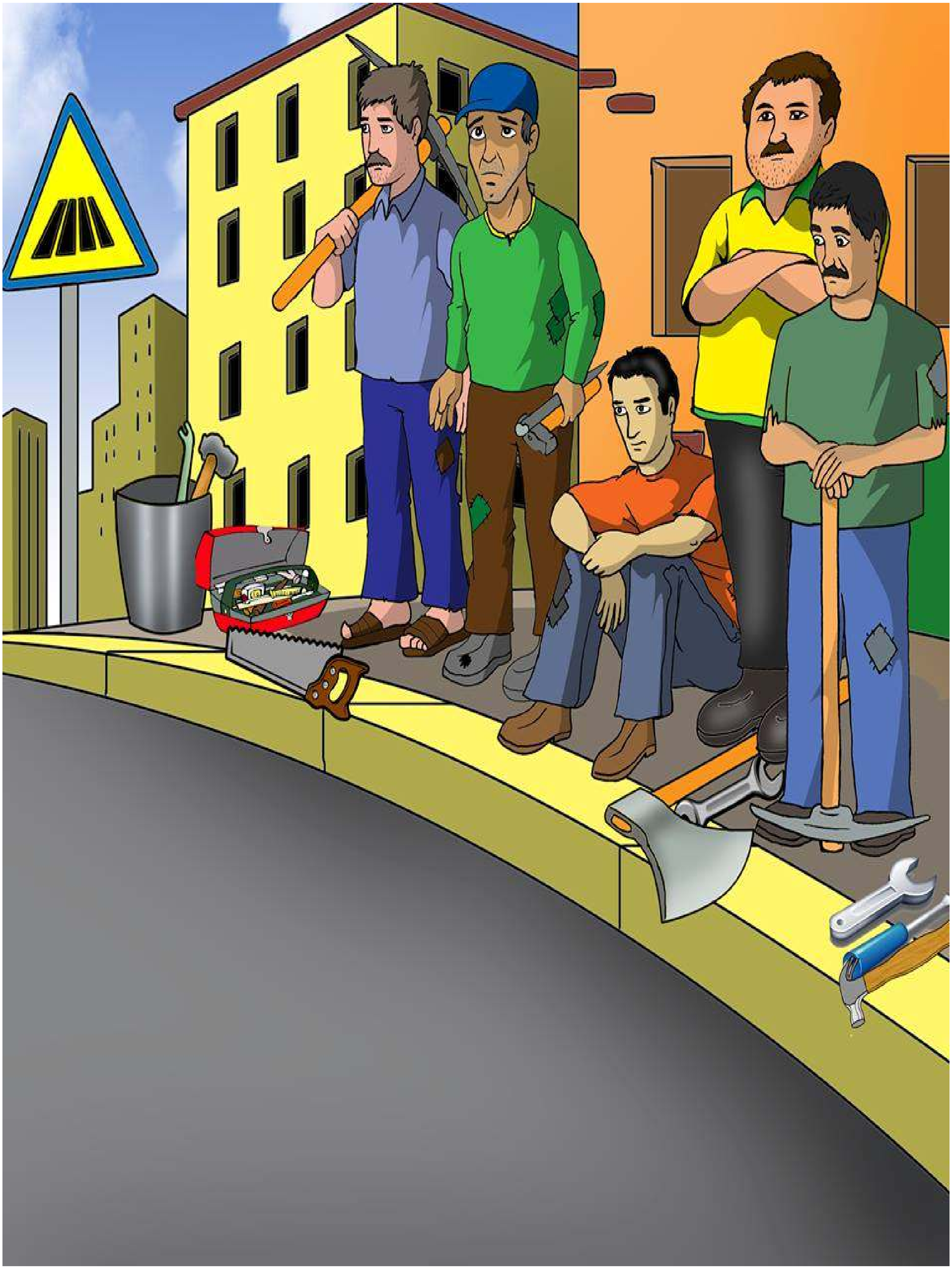
فقال أبو زيد: أنا موافق يا شباب على اقتراح أبي حسين وبصراحة لا يُوجد عندي ما أخسره، كما أنَّه لا يُوجد بديل، والمغامرة بطرق أبواب الرزق البعيدة أحسن من الجلوس دون عمل هنا .

فأقره بعض الشّباب، وبعد أيام أزِف موعد الرحيل فحزم الأصحاب حوائجهم البسيطة، وودّعوا أهليهم ومضوا لا يلوون على شيء يطلبون مجهولاً يدّخره المستقبل الغامض لهم .

وصل الشّباب وأبو زيد وأبو حسين إلى المدينة واختاروا ساحة عامَّة، ووقفوا على أحد مفارقها بانتظار من يأتي ليستخدمهم، وطال الانتظار ساعة، وتلتها أخرى، حتَّى زالت الشّمس عن كبد السّماء.

فقال أبو حسين: انتهى اليوم، ولن يأتي أحد بعد هذا الوقت، فهيّا نذهب إلى صديق لي نبيتُ عنده، وأخذهم إلى محضر قيد البناء، ونادى على أبي محمد النّاطور. فشاهدوا رجلاً كهلاً قادماً نحوهم مُهللاً مُرحباً: أهلاً وسهلاً تفضلوا. فدخلوا إلى غرفته المتواضعة، وشربوا الشّاي، وسهروا وتسامروا وتحدثوا عن القرية والعمل في الزّراعة، إلى أن دَبَّ النّعاس في عيونهم، فافترشوا الأرض وناموا حتى الصّباح والخيبة تملأ قلوبهم قيحاً .

وفي اليوم الثّاني ذهبوا إلى مكانهم من السّاحة ينتظرون الفرج المرجى، وجاء أحدهم يطلبهم لعمل واتفقوا على الأجر، ومضى النّهار الشاق، وعادوا إلى النّاطور أبي محمد، وباتوا عنده، وتكرر الأمر ذاته في اليوم الثّالث والرّابع، وتصرمت الأيام حتى مضت سنتان من الروتين الممل استطاع أبو زيد خلالهما أن يدّخر مبلغاً طيباً.



عاد إلى قريته يظن نفسه مكللاً بتاج النجاح إلى حين .

واستُقبل أبو زيد بحفاوة كبيرة، وقالت له أمه: الحمد لله الذي وفقك، والآن ينبغي أن تتزوج يا ولدي لتكمل دينك؟!

أجاب أبو زيد: أتمنى ذلك، ولكن أين من ترضى بوضعي ؟

ابتسمت أمه بحنان، وقالت: بنت الحلال موجودة، إنها كريمة جارنا أبي علي ألا تعرفها؟ انبسطت أسارير أبي زيد، وقال: نعم أعرفها.

قالت: كيف تجدها؟

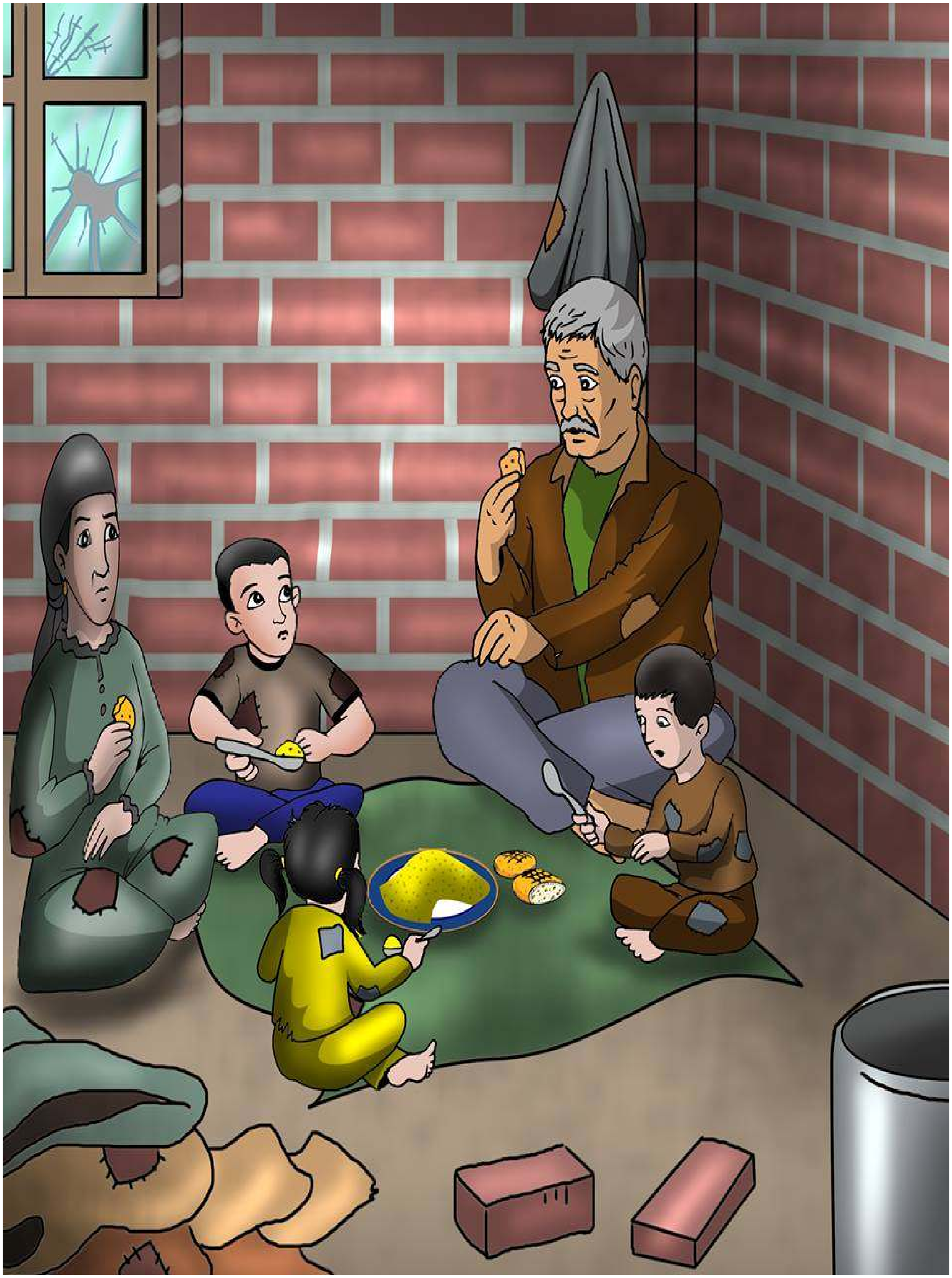
أبو زيد: فتاة طيبة، ومن حارتنا، والحال من بعضه، وهو اختيار مُوَفّق.

تهلّل وجه الأم وهتفت جَذلى: سوف أخطبها لك.

ضحك أبو زيد وقال: على بركة الله.

وتمت الأمور بسرعة وتزوج أبو زيد في بيت والدته، و رُزِقَ بثلاثة أولاد، ولم يتغير حال أبي زيد المادِّي، ولكن أبا زيد تغير، فجسمه بدأ يضعف، ووهن عظمه واشتعل رأسه شيباً ، وفقد قدرته على رفع مواد البناء و ترحيل الرّدم، وفرغت جعبته من المال، وتعاظمت مسؤولياته، وزادت متطلبات الحياة، فصار في عوز دائم وديون مستمرة.

وتحت هذه الضغوط الشديدة أُصيب أبو زيد بالحزن والاكتئاب، وذاب قلبه وهو يرى زوجته تأكل البرغل وتُطعم أولاده كسرات الخبز المغمسة بمرق أهدته لهم جارتهم، ونظر إلى عيون أولاده المنكسرة وأجسامهم النّحيلة وثيابهم البالية، التي صارت أشبه بالخرق، وأوجعته بطونهم الضامرة الظاهرة للعيان! فأشاح بوجهه إلى جهة أخرى، ودمعت عيناه وعضَّ على شفتيه قهراً وحُنقاً!!.



ومضت أسابيع، وأسابيع، وأبو زيد يتحامل على نفسه مواصلاً عمله الشاق، الذي يكسر الظّهر ولا يرفع الفقر، وإنَّما يدفع عن أسرته غائلة الموت العاجل، وذات يوم أخذه ورفاقه رجل يملك شركة ألبسة للعمل في ترحيل الأنقاض. ودار الحديث بين أبي زيد وبين صاحب الشّركة، وشكا له العَوز والفقر والحاجة، وأنه يبحث عن عمل أفضل. فرقّ قلب صاحب الشّركة له وقال: تعال غداً صباحاً إلى الشّركة ولك عمل عندي؟

ذهب أبو زيد إلى الشّركة، ودخل من بوابتها الضّخمة، فشاهد الموظفين والموظفات يدخلون إلى مكاتبهم، فسأل عن مكتب صاحب الشّركة، وذهب إليه. فاستقبله صاحب الشّركة مرحباً وواساه قائلاً: سوف تُفرج الأمور، ويتحسن وضعك إن شاء الله.

سأل أبو زيد بلهفة: ما هو العمل الذي وعدتني به؟

قال: نحن بحاجة إلى رجل يقوم بتحضير القهوة والشّاي، وينظف المكاتب صباح كل يوم.

أبو زيد: وظيفة سهلة تُناسب وضعي الصحي، وقد قبلت هذا العمل.

بدأ أبو زيد العمل، متنقلاً من مكتب إلى آخر، يوصل طلبات الشّاي والقهوة ، وطاب العيش لأبي زيد، ومضى زمن ليس بالطّويل، عرف خلاله مُعظم الموظفين رجالاً ونساء عن كثب، وصار أبو زيد يمازحهم مستغلاً طبيعة عمله التي تُتيح له ذلك، وامتدت أواصر

التّآلف والارتياح، واكتسب أبو زيد شعبية كبيرة ولكن إحدى الموظفات تجاوزت حدود العلاقة الوظيفية مع أبي زيد دون قصد منها، وأنست إليه متناسية الفروق العلمية والثّقافية بينهما، ومتخطية الوضع الاجتماعي لأبي زيد، كونه رب أسرة فقيراً معدماً، ومعيلاً لزوجته وأولاده، واختلطت في نفسها أوراق التّعامل معه، ورفعته فجأة من مستخدم بسيط في الشّركة تسرها دعاباته، وترتاح لمرآه وبساطته، وتقدر سؤاله عن حالها ووضعها، إلى أمل مستهدف أسقطت عليه صُورة زوج المستقبل، نعم زوج المستقبل!..

الفصل الأول

التجربة

بدأت العلاقة بين أبي زيد والموظفة تأخذ منحى مُنحرفاً عن ضرورة العمل، فصار أبو زيد شبه مقيم في مكتبها، فكل من يريد أبا زيد يذهب إلى مكتب الموظفة ليطلب منه القهوة والشّاي. وفي البداية ظن الموظفون أن أبا زيد قد ارتاح نفسياً لهذه الموظفة نتيجة عطفها عليه، وإسماعه الكلام الجميل. ولكن الأمر تطور مع الزّمن، واختلطت الأوراق عند أبي زيد أيضاً، ونسي الهوة العلمية والثّقافية التي تفصلهما، ونسي زوجته الصّابرة وأولاده الجائعين، وبدأ يبادل الموظفة الشُّعُور ذاته، وطفقا يهيمان في أحلامهما الوردية!! وسرعان ما انتشر خبر هذه العلاقة غير الطّبيعية في الشّركة وبدأ الهمز واللّمز وانقسم الموظفون بين مصدقين ومكذبين . ولكن الأحداث صدَّقت هذا الخبر وقطعت الشّك باليقين.

وتقدم أبو زيد إلى الموظفة شاهراً جهله، وراكباً فقره، تاركاً خلفه أهله ينهش فيهم العوز، وطلب منها الزّواج، ووافقت المسكينة على عجل، ظناً منها أنَّه الفارس المقدام، جاءها على جواد أبيض، لينقذها من براثن الوحوش التي تزوم حولها بشراسة ، وبدأت ترسم في خيالها صُورة لأبي زيد الهمام الشّجاع!!. وفوجئ الموظفون بموافقة زميلتهم (سعاد) على الزّواج من أبي زيد وجاؤوها مستفسرين عن السّبب، مذهولين ممَّا سمعوا؟! فأكدت لهم الخبر، وأعلنت أنها عازمة على إتمام هذا الزواج وأن قرارها قطعي لا رجعة عنه.

فانبرت لها زميلتها رُبا قائلة: أنت تؤمنين بصدق محبتي لك وحرصي على مصلحتك، وعملي كمرشدة اجتماعية في هذه المؤسسة تُحتم علي دفع الخطر عنك ما استطعت إلى ذلك سبيلا، فهل تسمحين لي بالكلام ؟

سعاد: طبعا تفضلي .

فسألتها زميلتها رُبا: أتعلمين أنَّ أبا زيد متزوج وعنده أولاد؟!

سعاد: أعلم، ولا أرى مشكلة في ذلك، الشّارع أباح للرّجل التّعددية.

رُبا: أنا لا أناقش حكم التّعدد في الزّواج، وإنَّما أناقش كارثة اجتماعية أنت مُقدمة عليها دون دراسة منطقية وافية لأبعادها المدمرة ؟

سعاد: الأمر لا يحتاج إلى دراسة وتعقيد.

رُبا: الأمور ليست بهذه السّهولة يجب عليك النّظر إلى الموضوع من عدة جوانب، مثلاً هل فكرت أن تضعي نفسك مكان زوجته؟ كيف تنظرين إلى هذه المرأة التي تريد أن تأخذ منك زوجك، ورب أسرتك ومُعيل أطفالك ؟ أهي امرأة فاضلة وصالحة أم امرأة أنانية تفكر بنفسها وبإشباع نزواتها على حساب الآخرين والإضرار بهم ؟. فالشّيء الذي لا ترضين به لنفسك كيف ترضين به لغيرك؟..

فزمَّت سعاد شفتيها وقالت: الأنبياء وهم خير الناس فعلوا ذلك فهل نَصِم زوجاتهم بالأنانية، ولماذا يُسمح لهن ما لا يُسمح لي ؟

رُبا: أنا أعتقد أن أبا زيد أبعد ما يكون عن التَخلُّق بأخلاق الأنبياء لنقارنه بهم مع احترامي له، وللتعدد شروطه التي لا تنطبق عليه فأنت تعلمين أنَّه فقير ومعدم ولا يستطيع أن يُعيل أسرته، وهو مقصر في الوفاء بحق أولاده من حيث التّربية والتّعليم والغذاء، فكيف يستطيع أن يؤسس أسرة ثانية، ووضعه الاقتصادي منهار تماما؟!..

أجابت سعاد بعناد: أنا لا أريد منه شيئاً إلا أن يكون زوجاً، وراتبي يكفيني .

رُبا: حسناً سأجاريك ، إذا كان المال ثانوياً فلا يجوز أن يكون الفكر كذلك، فأنت تعلمين أن مستوى أبي زيد العلمي متدن، وثقافته معدومة، وتفكيره منغلق، ووضعه الاجتماعي ضعيف!!. فكيف ترضين لنفسك وأنت المتعلمة والمثقفة وبنت المدينة أن يكون زوجك صُورة بشرية مشوهة، وكيف تختارين هذا الرّجل ليكون أباً لأطفالك الذين سيعيشون أيتاماً ثقافياً واجتماعياً منذ ولادتهم لانتفاء فاعلية الأب .

قالت سعاد: يمكنني أن أثقف أبنائي بنفسي ، فأنا أحمل مؤهلاً جامعياً كما تعلمين .

رُبا: لعلك تظنين أنه سيدعك بسلام، جميعنا نعلم أنَّه يضرب زوجته وأولاده، ويسخط ويرعد ويغضب، فكيف تتصورين أن يعاملك إذا تزوجك؟ استيقظي يا صديقتي ستكونين بالنّسبة له امرأة ملكتَها عصمَتُه، يجب أن تنحني أمام قيادته الذّكورية، وسوف يضرب

بشهادتك وكلامك المعسول عرض الحائط، وينتهي الحلم الوردي لتعيشي واقعك الأليم لحظة نزول يده كالصاعقة لتصفع وجهك، وعندما تعترضين سيكشر عن أنيابه ويشتمك ويهينك ويقول لك: (الباب يخرج جملاً) اذهبي إلى أهلك، وكل ذلك نتيجة الجهل وانعدام الثّقافة عنده، ولكن إن حصل ذلك، فالحق ليس عليه ابتداء، وإنَّما الحق على من قبل به أصلاً!!.

سعاد: أنت تجورين عليه ، كل الموظفين يحبونه ويُقبلون عليه .

رُبا: الموظفون يُشفقون عليه ويَستملحون فكاهاته، فهو كالمهرج الذي يُضحكهم، ولكنه سيسمع ما لا يرضيه إذا سوَّلت له نفسه وتَطلَّع إلى أعلى من مقامه المتواضع، ثم هل لك يا صديقتي أن تقولي لي أين ستسكنين؟ مع زوجته وأطفاله في البيت الذي لا يسعهم! لعلك تظنين أنه سيستأجر لك بيتاً فخماً من معاشه الضّخم! هل ستستأجرين أنت وتصرفين عليه من معاشك، ويكون دوره مثل ذكر النّحل! فتعيشين منذ بداية الزّواج كأرملة، وإذا جاءك أولاد يكونون أيتاماً ابتداء، ولن تستطيعي الاستمرار في العمل لأنَّ الأولاد بحاجة إلى عناية الأم، فأين تضعينهم، ومن يربيهم، ومن يصرف عليهم إذا تركت العمل؟.

ويحق لي باسم صداقتنا أن أسألك وبصراحة ماذا أحببت فيه؟!

. هل مستواه العلمي متميز؟

. هل ثقافته عالية؟

. هل عنده مال كثير؟

. هل عمله ذو دخل كبير؟

. هل له مكانة اجتماعية مرموقة ؟

. هل يتصف بأخلاق فاضلة؟

. هل هو شاب مُفعم بالحيوية والنّباهة والذّكاء؟

. هل هو عازب ويحبك فعلاً؟

ـ هل يريد بناء أسرة مترابطة قائمة على الحب والعاطفة؟ ولماذا لم يفعل ذلك مع أسرته الأولى ؟

واسمحي لي أن أقول لك بصراحة، قبل دقائق سألت أبا زيد: كيف تُقدم على هذا الزّواج، وأنت فاشل في زواجك الأول ؟ فضحك وقال: هي راضية فما دخلك أنت!.

ـ هل تعلمين ماذا يعني هذا الجواب؟ سوف أخبرك بصراحة: يعني أنه يستغل عاطفتك بأنانية بشعة، ويعني أنَّه يعرف أنَّ زواجكما خطوة طائشة بالنّسبة له ولك، وليس لمصلحة أحد منكما، ولكن جهله يدفعه للإقدام عليها، وهو يُدرك سلفاً أن هذه اللّعبة سَتُمنى بفشل ذريع، ولكن يكون قد تسلّى بك، ولن يخسر شيئاً، وأنت سوف تدفعين الثّمن وحدك!.

إن الأمر الذي تُقدمين عليه انتحار اجتماعي حتمي، والمشكلة ليست فيه، وإنَّما المشكلة فيك. لأنَّ التقييم سهل من النّاحية العقلية عندما تضعينه في الميزان المنطقي، فأنت لا تجدين لهذا الزواج صفة

إيجابية واحدة، بينما يحفل بالصفات السلبية. وإذا كان الأمر كذلك، فالحكم العقلي على هذا الزواج لا يختلف فيه اثنان، وسينتهي كما أسلفت بفشل قاتل، والعاقل لا يُقدم على عمل يعلم أن نتيجته الخسارة، فإذا أصر على الإقدام على مثل ذلك العمل يُؤكِّد أنه مُعتل نفسياً، وينتقم من الحياة أو الأهل بقَبول الزّواج الفاشل .

فلا يكون زواجك من هذا الرّجل حُبّاً به، وإنّما لاستخدامه كأداة انتقام، وقتل اجتماعي مُتعمد، ولو كانت الضّحية أنت!.

إذاً؛ المشكلة عندك، فأنت تعانين أزمات اجتماعية عاطفية، ولم تستطيعي أن تحققي التّوازن النّفسي في حياتك، ومازلت في مرحلة الطّفولة غير مفطومة عن والديك، وهذه المرحلة كامنة في نفسك، وكبرت معك لأنك سمحت لها أنت أن تبقى في داخلك، فصار لكِ عُمران:

الأول: عمر الجسد ثلاثون عاماً.

الثّاني: العمر النّفسي والإدراكي مازال في مرحلة الطّفولة.

وإذا كان الأمر كما ذكرت، فعلاج نفسك لا يكون بالانتقام الهستيري عبر زواج من أي رجل، ولو كان صُورة رجل دون إنسان في داخله!.

فيا صديقتي افتحي عينيك على الحقيقة، لا تُعالجي الخطأ الأصغر بخطأ أكبر ، واستجيبي لنداء ضميرك وعقلك، فما ذنب أسرته تأخذين منهم معيلهم على علّاته ؟ يا صديقتي إنَّ زواجك إن تمَّ

فنهايته الفشل القريب، وسوف تُطلَّقين سريعاً، ويزداد موقفك الاجتماعي تعقيداً كمطلقة، وستنتقل النتائج الوخيمة إلى مصيبة تستعصي على العلاج إذا جاءك منه ولد، لأنك المسؤولة الوحيدة عن الولد، وسوف يُهمله أبو زيد ويتركه لك، فكيف يعيش هذا الولد دون أب، ودون أم متفرغة لتربيته.

واعلمي يا صديقتي أنَّ أبا زيد لم ولن يثق بك، لأنه معدوم العلم والثّقافة، ومتزوج أصلاً قبلك، وزوجته موجودة، وأنت تملكين العلم والثّقافة بنسبة تَفُوقه بمراحل، وسيعتقد مع كل نظرة أنك تزدرينه، وأنك تُظهرين الاحترام مسايرة ومجاملة له، فيحقد عليك وينتقم منك.

ثم يا صديقتي! هل فكرت كيف يكون موقفك بيننا، وزوجك قهوجي عندنا لا قيمة اجتماعية له؟ وكيف تتعاملين معه وأنت تنظرين إليه بدونية ولا تحترمينه؟

يا صديقتي كل ما ذكرته سابقاً كاف لأن تُعيدي النّظر في قرار زواجك، فما بالك إذا فتحنا ملف موقف أهلك وما سيعلق بعلاقتك بهم من شوائب سامة، هل تُجبرينهم على قَبُول رجل لا يريدونه؟ هل تريدين أن تخسري احترام أهلك لك؟ هل تريدين أن يكون زوجك مهزلة وسخرية للآخرين؟

هل تريدين أن تتزوجي رغم أنف الجميع، وتظنين أنَّ الأمر يخصك فقط؟

اعلمي يا صديقتي **أنَّ الزّواج قرار اجتماعي نابع من الأسرة لأنَّ الأسـرة كلهـا تتحمـل تبعـة الـزّواج**، فـإن طُلقـت لـن يتخلى عنـك أهلك، لذا؛ لا ينبغي أن تنفردي بقرار الزّواج لأن ما تراه الأسرة أوسع أفقاً وأبعد مآلاً من رؤيتك، التي هي غالباً عاطفية انفعالية، من هنا ينبغي على الشّاب أو الفتاة أن يُقَدِّمَا قرار الأسرة على قرارهما، وذلك بشرط أن يكون قرار الأسرة حكيماً عادلاً، ولمصلحة الابن أو الابنة، كمسألتك هذه التي أنت فيها.

صـديقتي سـعاد الكـلام يطـول ولـه أبعـاد وأوجـه كثـيرة، **ولكــن الإنسان يحكم على ملوحة كيس الملح الكبير من خلال تذوق بعض ذراته، ولا يحتاج الحكم عليه أن يتناول الملح كله. فالذي يجرب المجرب عقله مخرب، والسّعيد من اتعظ بغيره، والشّقي الذي يعيد خطأ غيره ويتعظ بنفسه**، فأرجو لك الصّحة والسّلامة النّفسية وسداد الرّأي والتّفكير، واعلمي أنَّ الرّجوع عن الخطأ فضيلة وسلامة، والاستمرار فيه كبر وندامة وخسارة .

قالت سعاد باستكبار: لقد سمعت ما ذكرته، و لن أدخل في جدال معك، ويكفي سبب وجيه واحد لاستمراري بقرار الزّواج منه، وهو أنني أحبه! أليس الحب سبباً كافياً للزّواج ؟.

وقامـت سـعاد وانـصرفت معتـذرة مـن زملائهـا، وتـركتهم خلفهـا مجتمعين بقلوبهم الجزعة عليها .



قال زميل لها: ينبغي علينا أن نمسك زمام المبادرة ونفكر بحل ناجع لمشكلتها .

رُبا: أنا أعرف صديقة لها تدعى أمل، علاقتهما وطيدة، سأشرح لها الموضوع لتمارس دورها كناصحة، عسى أن تُقنعها بالعدول عن هذا القرار الانفعالي المدمر .

وانصرف الزملاء وكلهم أمل ألا يتم هذا الزواج الفاشل . واتصلت رُبا بأمل صديقة سعاد وأخبرتها القصة كاملة فتعهدت أمل بمتابعة الأمر، والعمل على حل المشكلة والحيلولة دون وقوع الكارثة .

وتصفحت أمل الفعاليات الثقافية ووجدت ضالتها بسرعة فقامت على الفور وأجرت اتصالاً هاتفياً بسعاد.

أمل: مرحباً سعاد كيف حالك ؟

سعاد: أهلاً أمل، الحمد لله وأنت كيف حالك إن شاء الله تكون أمورك بخير ؟

أمل: الحمد لله أنا بخير . سعاد ! أريد أن أراك فأنا في شوق عارم إليك !

سعاد: متى تحبين أن تأتي لزيارتي فأهلاً وسهلاً بك .

أمل: ستُلقى محاضرة هامة غداً في المركز الثقافي فما رأيك لو اجتمعنا هناك ؟

سعاد: محاضرة! حول أي موضوع ؟ ومن سيُلقيها؟

أمل: موضوع المحاضرة (**التعددية في الزواج**) وسيُلقيها مفكر إسلامي مشهور.

قالت سعاد بارتياب: أوه ! وما علاقتي بهذا الموضوع ؟

أمل: أريد حضور المحاضرة، وقلتُ في نفسي لو اجتمعنا هناك فسوف أكسبُ عدة أمور،رؤيتك،والحديث معك، وحضور المحاضرة، ونخرج مع بعضنا لنمضي وقتاً ممتعاً خارج جدران البيت .

سعاد: لا بأس سوف أذهب إلى المحاضرة من أجلك أنت فقط .

أمل: شكراً لك يا صديقتي، نلتقي في المركز الثقافي غداً السابعة مساء.

وبعد أن انتهى الحديث بينهما تساءلت سعاد أَوَصلت أصداء مشروع زواجها إلى مسامع صديقتها أمل، أم أنّ الأمر حصل مصادفة من باب التوافق الزماني بين الأحداث !.

التعددية في الزواج

في اليوم التالي التقت الصديقتان عند باب المركز الثقافي حسب الموعد بينهما، وتعانقتا وتبادلتا القُبلات وكلمات الترحيب والابتسامات ...

سعاد: ما أجمل لحظات اللقاء بعد الغياب والشوق !

أمل: نعم ! إنها من أجمل لحظات العمر، فالصداقة قيمة عظيمة ينبغي على الناس المحافظة عليها . هيا يا سعاد لندخل إلى قاعة المحاضرة لنختار مقاعد قريبة من المحاضر، يبدو أن المحاضرة تحظى بإقبال منقطع النظير .

صعد المحاضر إلى المنصة وبدأ محاضرته قائلاً:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أشكر الحضور رجالاً ونساءً لقدومهم لسماع المحاضرة المعنونة بالتعددية في الزواج .

أيها السادة والسيدات

إنّ الخالق المدبر قد خلق الكون ثنائياً زوجي الحدود، وجعل ذلك قانوناً ثابتاً قال تعالى: {وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} الذاريات49 وكلمة (زوجين) لا تُطلق على الاثنين من النوع ذاته أي ذكر وذكر،وإنما تُطلق على الذكر والأنثى، فكل واحد منهما زوج للآخر خلقاً، بمعنى وجود علاقة التلاؤم والتكامل والانسجام

بينهما، بينما لا يوجد علاقة تكامل بين اثنين من النوع ذاته، وبالتالي لا يصح إطلاق اسم زوجين عليهما، وإنما هما اثنان .

والإنسان جنس يحتوي على زوجين الذكر والأنثى، وكل ذكر هو زوج للأنثى خلقاً، وكل أنثى هي زوج للذكر خلقاً، ونزل الشرع الإلهي لتنظيم هذه العلاقة بصورة واعية، ولم ينزل ليعطي حكم الإباحة لممارستها لأن ممارستها شيء فطري لا يحتاج إلى حكم الإباحة، مثل ذلك فعل تناول الطعام والشراب فهما يحتاجان إلى تنظيم تناولهما، **وما أراد الشارع منعه أو تحريمه ينص عليه عيناً، ومن هذا الوجه قال العلماء: المباح مُطلق والحرام مُقيّد .**

فحرّم الشارع نكاح المحارم ومجموعة من النساء مثل زوجة الابن من الصُلب، والمرأة المتزوجة، وزوجة الأب ...الخ، وذكرهم بالنص تفصيلاً . أما ما سكت الشارع عنه فيرجع حكمه إلى الأصل الذي هو الإباحة . إذاً؛ زواج رجل بامرأة واحدة لا يحتاج إلى تشريع لأن ذلك تحصيل حاصل، وهو أصل في العلاقات الإنسانية . ولكن يحتاج إلى تنظيم وضبط العلاقة بينهما من حيث الواجبات والحقوق، أما فكرة التعددية بالزواج فهي واردة من حيث نظام الواقع، ومَثَل الرجل في ذلك كمثل نواة الذرة، والنساء كمثل الإلكترونات المتعددة التي تدور حول النواة وترتبط بها، ومثله أيضاً كمثل مركز الدائرة وعلاقته بمجموعة نقاط المحيط من حيث المسك والارتباط، فكما أن الذرة والدائرة لهما مركز واحد تدور حولهما وتتعلق بهما الإلكترونات ونقاط

المحيط، كذلك في الخلية الاجتماعية المتمثلة بالأسرة يمكن أن تكون مُؤَلَفْة من مركز واحد يَتمثل بالرَجل ترتبط به عدة نساء، **فالفكرة من حيث الأصل هي فكرة علمية واقعية منسجمة مع نظام الكون،**ويترك تحديد هذه العلاقة والتعددية لنظام المجتمع الإنساني من حيث السماح أو المنع .

وبما أن فكرة التعددية في الزواج من النساء علمية وواقعية لم يأت تشريع يُكرسها، وإنما تركها لقاعدة الأصل في الأشياء الإباحة. ولكن وضع للتعددية حدّاً أعلى وهو أربع نساء، **وَوَجَّه فكرة التعددية إلى الأرامل والمطلقات لترميم الخلية الاجتماعية وتفعيلها** . قال تعالى:

{وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُواْ }النساء3

أيها السادة والسيدات !

انتبهوا إلى أن النص يتكلم ابتداءً عن اليتامى والعناية بهم، فمحور النص هو العناية باليتامى بخلاف ما هو شائع من أن عنوان النص هو إباحة تعدد النكاح، وذلك من خلال اقتطاع جملة ﴿ فانكحوا ما طاب لكم من النساء ﴾ من سياق النص وأخذها بصورة منفردة وتوظيفها خلاف ما قصد الشارع منها، فهذا العمل الأبتر الذي يقع فيه كثير من الباحثين والفقهاء مثله مثل من يأخذ قوله تعالى:

{فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ }الماعون4 أو قوله{... لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ ... } النساء43 **فينبغي إرجاع الجملة إلى محلها من النص، وفهم النص ضمن منظومته الكلية من النص العام، وإسقاط ذلك على محل الخطاب من الواقع ليتم تحقيق المقاصد الإلهية للتشريع من حيث المنفعة للناس وصلاح وبناء المجتمع والنهضة به.** فيكون تحقيق رغبة الفرد ومنفعته متعلقة بمصلحة المجتمع وتماسكه . فلذلك أتى توجيهاً للفرد الذي يريد أن يتزوج أكثر من واحدة أن يكون ذلك من أم اليتامى، وبهذا العمل يكون قد حقق رغبته وحصل على منفعته، وبالوقت ذاته قام بترميم خلية اجتماعية فقدت مركزها المتمثل بالوالد فجعل من نفسه مركزاً لها وأباً لليتامى، وزوجاً لأمهم، وهكذا يتم التكافل والتعاضد بين مصلحة الفرد ومصلحة المجتمع بصورة منسجمة تماماً . لذلك بدأ النص بقوله تعالى {وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى}بمعنى إن شعرتم أنكم تستطيعون تحمل مسؤولية العناية باليتامى مع أمهم بصورة دائمة متلازمة غير قابلة للفصل أتى جواب الشرط: {فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ} أي قوموا بترميم ما طاب لكم من الخلايا الاجتماعية على ألا يتجاوز أربع خلايا لأن ذلك مسؤولية كبيرة، يعجز الفرد عن الوفاء بمتطلباتها لذلك تابع النص بجواب شرط آخر وهو: {فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُواْ }فإن علمتم أنكم سوف تجدون صعوبة في العدل بين اليتامى المختلفة أمهاتهم لأن

العدل بين النساء مستحيل {وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَاء وَلَوْ حَرَصْتُمْ } (النساء: 129) فعليكم بترميم خلية واحدة فقط، وذلك أدنى ألاّ تعولوا وتقعوا في مشكلة الفقر والعجز وتخسروا الخلية الاجتماعية الأولى أم الأولاد، وذكر النص كلمة (النساء) دون كلمة (أمهات اليتامى) لأن كلمة النساء تشمل أمهات اليتامى بمفهومها، وأضافت حكماً آخر وهو إباحة التعدد من النساء عموماً دون حض من الشارع على ذلك، بينما لو أتت كلمة (أمهات اليتامى) لحصرت الحكم فيهن فقط، وكلمة (طاب) لاتدل على الشهوة أو الرغبة، ومن ذلك قولنا:طاب الطعام، وطاب المريض، ونَصِفُ الإنسان الذي يعالج الأبدان من الأمراض وإرجاع تكيفها مع نظامها بالطبيب، فيكون النص(ماطاب لكم) يُقصد به ماصَلُح لكم ويُحقّق الانسجام والتكيف.

فالنص الإلهي أتى بتنظيم الحد الأعلى للتعدد، ووجّهه تعليماً وتشجيعاً إلى أن يكون هذا التعدد ذا منفعة للمجتمع، فالخلايا الاجتماعية التي فقدت مركزها هي أولى بعملية البناء والترميم، ويُقاس عليها مقصداً كل امرأة تُعاني من مشكلة اجتماعية نتيجة الطلاق، أو التشريد، أو فقدان الأسرة نتيجة حروب أو كوارث طبيعية، وما شابه ذلك، فهُن أولى بالزواج التعددي . وسكت الشارع عن التعدد الذي يهدف إلى مجرد المتعة، ولم يحض عليه، فهو من المباح حسب قاعدة الأصل في الأشياء الإباحة إلا النص، ولا يطبق المباح إلا مقيد،ويؤخذ

حده الأعلى من النص ذاته أربع نساء فقط، ويترك تنظيم ممارسة المباح على أرض الواقع لنظام المجتمع، وحسب ما يرى مصلحة له منعاً أو سماحاً فله كامل الحرية بشرط أن لا يتجاوز حدود الشرع .

وشكراً لحسن إصغائكم

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وحصل مداخلات وتساؤلات كثيرة من الحضور، وقد قام المحاضر بالجواب عليها،ومناقشتها مما أثرى الموضوع ورفع مستواه . وانصرف الحضور وهم في حالة نقاش وجدال مع بعضهم بعضاً حول الموضوع بين مُعجب مُؤيد، وآخر مُتحفظ على الموضوع للدراسة والتوسع، وآخر مُتهكم منزعج ! وزعم أحدهم أن المحاضر العتيد لم يأت بجديد إذ أقرَّ أن النص أباح التعدد مطلقاً وحدّده عدداً فشرح المشروح وعرض المعروض، وتصدى له آخرون أعجبوا بمضامين المحاضرة الثرية، وهكذا المجتمع يحتوي على رؤى متعددة ضمن ثقافة واحدة، فالحياة قائمة على مجموعة ألوان، وجمال اللوحة يكون بتعدد الألوان وغنى المشهد البصري .

وخرجت سعاد وأمل من قاعة المحاضرة وأدركت أمل أن الوقت قد حان لالتقاط الفرصة السانحة فقالت مبتسمة: ما رأيك يا سعاد في المحاضرة ؟

سعاد: إنها محاضرة رائعة ! بل هي عظيمة ! لم أسمع في حياتي مثل هذه المعالجة لمشكلة التعدد والتعامل مع النص القرآني !

أمل: وأنا أشاطرك الرأي نفسه .

سعاد: ما رأيك لو دخلنا إلى محل حلويات لنتناول بعضاً منها ؟

أمل: فكرة جيدة ! وخاصة أني أريد أن أتكلم معك بموضوع شخصي متعلق بك؟

سعاد: أوه ! وما هو الموضوع ؟

أمل: انتظري حتى ندخل المحل، ونجلس إلى الطاولة !

سعاد:هيا ! إذن لقد أثرت فضولي ونفذ صبري .

وعندما استقرتا في مكانهما وطلبتا الحلوى المفضلة لديهما سألت سعاد صديقتها بلهفة ظاهرة: والآن ما هو الموضوع الذي يخصني ؟

أمل: حسناً بلا مقدمات لقد وصل إلي خبر أنك قررت الزواج ؟

سعاد: وما الخطأ في ذلك ؟

أمل: ليس الخطأ في قرار الزواج ! وإنما في اختيار الزوج!

سعاد: اطرقي صلب الموضوع بصورة مباشرة إذا سمحت !؟

أمل: صراحة ! لقد علمت أنك قررت الزواج من مستخدم الشركة التي تعملين فيها !

سعاد: من أوصل الخبر لك !؟

أمل: لا يهم من أوصل الخبر، المهم أنه وصل وكفى، فهل هذا صحيح !؟

سعاد: نعم ! صحيح .

أمل: لكن علمتُ أنه متزوج وعنده أولاد !

سعاد: ألم تسمعي في المحاضرة أن التعدد أمر مباح !؟

أمل: ألم تسمعي أنت أن التعددية سُنَّت من أجل حل المشاكل الاجتماعية !؟

سعاد: ألا تَعدّين وصولي إلى سن الثلاثين دون زواج مشكلة اجتماعية !؟

أمل: مشكلة طبعاً ! ولكن الزواج من مُستَخدم الشركة ليس حلاً؛ بل مشكلة أكبر!

سعاد: أنا مضطرة، الوقت يفوتني وما من خيار آخر متاح على أرض الواقع .

أمل: ليس هناك ما يبرر زواجاً كهذا.

سعاد: أريد أن أرتاح، وأريح أسرتي، وأحل مشكلتي .

أمل: ولكن ما تُقدمين عليه لا يحل مشكلتك، وإنما يُعقدها ويزيدها صعوبة .

سعاد: بالله عليك اتركي الموضوع ودعينا من الهم والمشاكل ؟

أمل: الهروب من الواقع لا يُغيره .

سعاد: لقد سئمت، ومللت من الحياة الماضية، وأريد أن أخوض تجربة جديدة .

أمل: التجديد شيء جميل، ولكن ينبغي على الإنسان أن يدرك أين يدخل، و ما هي عواقب ذلك الأمر .

سعاد: ما رأيك لو نذهب، لقد انتهينا من تناول الحلوى ؟

أمل: كما تريدين، يبدو أنك لا تريدين معالجة الموضوع !

وقامتا وانصرفتا من المحل، وذهبت كل واحدة منهما إلى بيتها بعد أن تبادلتا السلام على نية اللقاء قريباً .



في اليوم الثاني، ذهبت سعاد إلى عملها كعادتها، واجتمعت مع زملائها، فقالت رُبا: إن السيد هاني يريد أن يتحدث معك في فترة الراحة والغداء حول موضوع زواجك، وذلك بطلب منَّا لحرصنا عليك

سعاد: أنا أُقَدِّر كم النبيلة، ولا مانع من إجراء ذلك الحديث.

وانصرفوا إلى أعمالهم، حتى حان موعد الراحة والغداء، فاجتمعوا في قاعة الطعام، وجلسوا إلى المائدة، وتناولوا الطعام وسط التعليقات المضحكة التي تُخفف عناء العمل، وبعد أن انتهوا من الطعام، استأذن هاني في بدء الحديث مع سعاد حول مشكلة زواجها فأذنت سعاد له متأثرة بالجو النفسي المريح .

هاني: بداية لا يفوتني أن أشكر زملائي على منحي ثقتهم الغالية في التكلم باسمهم جميعاً، ومناقشة موضوع زواج زميلتنا سعاد من السيد أبي زيد مستخدم الشركة .

آنسة سعاد **!** أنا وزملائي قررنا التكلم معك في هذا الموضوع، من منطلق الواجب الإنساني أولاً، ومن منطلق حُبنّا لك كزميلة لنا في العمل ثانياً.

سعاد: شكراً لاهتمامكم وشعوركم الطيب .

هاني: نظراً لضيق الوقت سأطرق الموضوع مباشرة، أذكر عندما كَلَّمَتك الزميلة رُبا سابقاً أنك رددتِ عليها بقولك: **أليس الحب سبباً كافياً للزواج**. وأنهيت الحديث عند هذه النقطة، وأنا أريد أن أبدأ من حيث انتهيت .

صـديقتي العزيـزة، أنـا أرى أنَّ أوراق المفـاهيم اختلطـت بـصُورة عـشوائية، حيـث يـتم اسـتخدام المفهـوم في غـير مكانـه المناسـب، وقصدت مفهوم الحب، فلو سألتك وزملائي الحاضرين ما هو مفهوم الحب عنـدكم؟ لـسمعت إجابـات كثيرة لـصُعُوبة تعريفه لأنـه شعُور إنـساني نبيـل، وهـو يختلـف في دوافعـه مـن إنـسان إلى آخـر. ولكـن نلاحـظ أنَّ الجميـع عنـدهم دوافـع تكـون هـي الأسـاس لبنـاء مفهـوم الحب. فعندما أحب إنساناً، يكون قد تَشَكَّلَ سابقاً دافع في نفسي يـدفعني نحـو مفهـوم الحـب. والـدّوافع في واقـع حـال الإنـسان بالنّسبة للحب نوعان:

النّوع الأول: **دوافـع نفـسية داخليـة** لا علاقة لها بـالطّرف الثّاني أبدا، نحو شُعُور الإنسان (رجل أو امرأة) بالضّعف والاحتياج والوحدة والعزلة والحزن والفشل على صعيد النّفس والواقع، وما شابه ذلك، فيتعلق نفسياً بالطّرف الثّاني، إذا سمح له بذلك وفتح باب نفسه له ليشاركهُ في اللّعبة الخاطئة، فيدخل الأول ويتعلق به، ويوهم نفسه أنَّه في حالة الشُّعُور بالحب، وهذا ليس حباً، وإنَّما لعبة تقوم على خلط أوراق خاطئة.

مثلاً: المريض الذي يتعلق بالطّبيب، فيسقط عليه شعور الحب، فإذا تركها تنمو بصُورة عشوائية في غير تربتها، يعرض على الطّبيب إن كانت امرأة الزّواج منها، وإن كان المريض امرأة والطّبيب رجلاً تقع في حبه وتهيم به وتتمنى الزّواج منه.

وهذا مثال آخر: تعلق الجائع بالطّعام، فإذا زال الجوع، زال هذا الشُّعُور، ورجعت المياه إلى مجاريها، فيكون اتجاه هذا الحب الوهمي من داخل الإنسان إلى الخارج.

النّوع الثّاني: **أمور متعلقة وموجودة في الطّرف الثّاني**، ولها في الواقع صُورتان:

الصّورة الأولى: **تُسمى إعجاباً**، وليس حباً، نحو أن تُعجب (المرأة أو الرّجل) بتسريحة شعرالآخر، أو بطريقة مشيه، أو بذوقه في اختيار اللّباس، أو بالعطر أو بطريقة حديثه، أو بتمسكه بنظام البروتوكول، وما شابه ذلك، ممَّا له علاقة بمفهوم المدَنيَّة، التي هي مُمارسة التّقنية والأتكيت والدّبلوماسية في الحياة الاجتماعية. وسأضرب لك مثالاً صارخاً واضحاً يُبيّن بجلاء هذه المدَنيّة:

عندما كانت بريطانيا تحتل الهند، كان الضّباط الإنكليز يلبسون بزتهم العسكرية ذات اللّون الأبيض النّاصع، وهي جميلة ومنمقة، ويلبسون في أقدامهم جزمات سوداء طويلة إلى أسفل الرّكبة بقليل، ويعتمرون قبعات أنيقة، وتحف أيديهم كفوف بيضاء، وهم ينعمون أصلاً كما لا يخفى على أحد بطول جيد وصُورة جميلة، ويحافظون على حلاقة شعر ذقونهم، وتهذيب شواربهم، وتسريحة شّعرهم، بجانب اتقانهم فن الأتكيت في تعاملهم فيما بينهم، وخاصَّة مع النّساء كما هو معروف، كما أنهم يتمتعون بمستوى علمي جيد، يمكن أن يصل إلى مستوى الاختصاص العالي، ومع كل تلك المدنِيَّة البرّاقة كان أحد

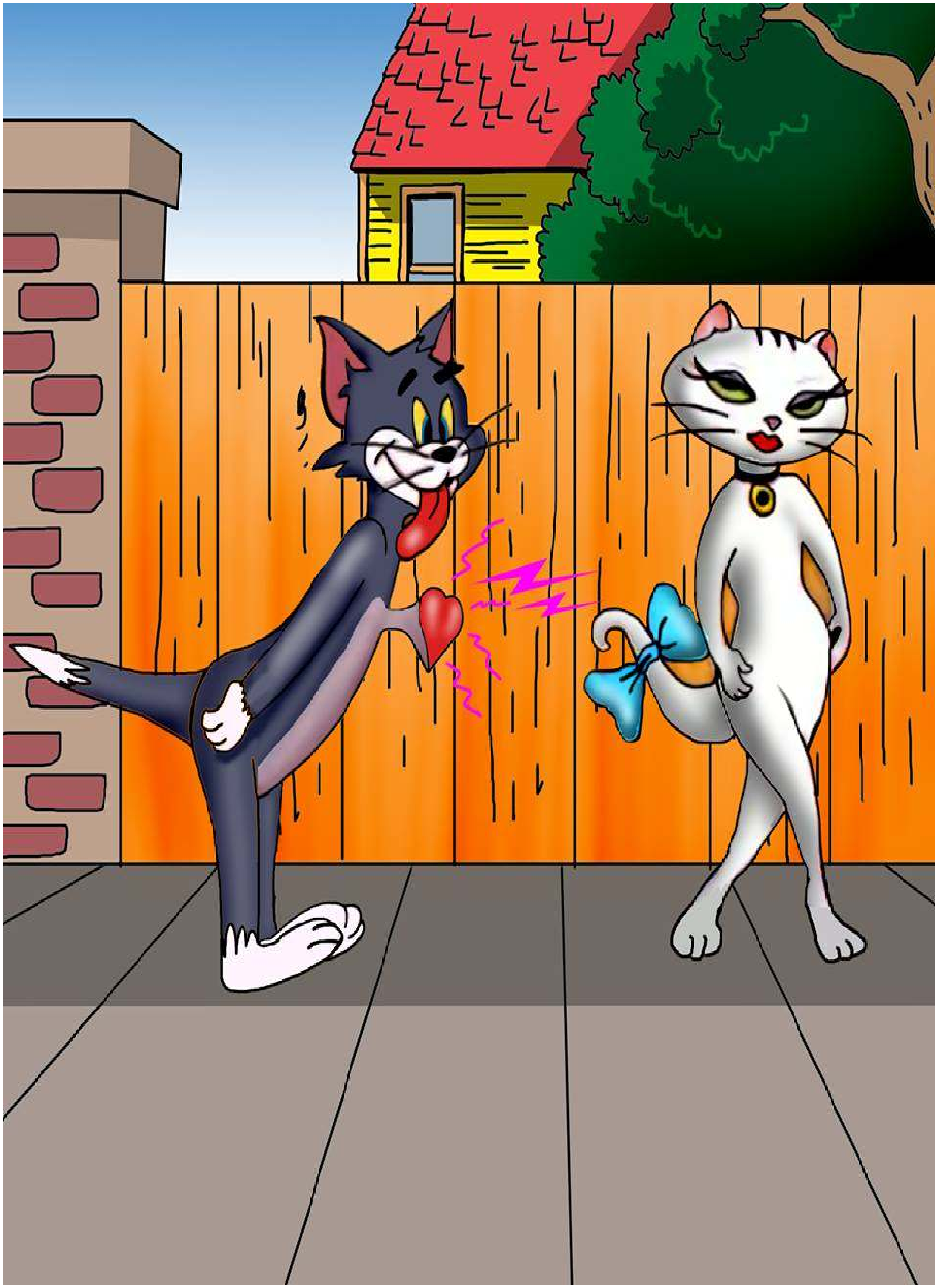
الضّباط الإنكليز يقوم بعملية القتل الجماعي للهنود العزل المسالمين بواسطة المسدس ماراً على الواحد تلو الآخر، حتَّى وصل إلى أحدهم، وضربه بكعب المسدس على رأسه، فتطاير دم الهندي وأصاب رذاذه بذلة الضّابط البيضاء النّاصعة، فجن جنون الضّابط، وانهال عليه ركلاً وبصاقاً وشتماً، قائلاً: يالك من قذر وسخ لقد لوثت بذلتي البيضاء! وصوب المسدس نحو رأسه وقتله! ونظر إليه باحتقار! وركله، وانصرف منزعجاً حانقاً على هؤلاء الهنود القذرين الذين لا يعرفون المدنِيَّة!.

فلو نظرت إلى هذا الضّابط من حيث الصّورة والمدنِيَّة لحرك في داخلك شعُور الإعجاب بهذه الصّورة الجميلة، وهذا الإعجاب لا علاقة له بالحب أبداً، وللأسف معظم العلاقات بين النّساء، وخاصَّة الموجهة للقيادات، والفنانين من المطربين والممثلين، وغيرهم قائمة على هذا الجانب الاعجابي الصّوري، ولكن يتم خلط أوراق المفاهيم ويتم استبدال الإعجاب بمفهوم الحب.



وكذلك الشعور بميل جنسي للآخر الذي يوصل إلى العشق إذا اشتد التعلق والطلب لإشباع الرغبة الجنسية، وهذا ليس حُبّاً، وإنما رغبة في الاتصال الجنسي ملأت نفس الإنسان ويصير عاشقاً، ومن هذا الوجه عرِّف العشق بأنه رغبة أو ميل نفسي شديد لممارسة الجنس مع الآخر (حب + شهوة)، وغالباً ما يكون من طرف واحد،ومثل ذلك مثل رغبة امرأة العزيز عندما عشقت النبي يوسف عليه السلام، وقصته معروفة.

لذا؛ لا يصح استخدام كلمة(العشق) للتعبير عن الحب لله أو النبي أو الأصدقاء.



الصّورة الثّانية: النّظر إلى نفسية الطّرف الثّاني وصفاتها وسُلُوكها في الواقع، والتّساؤل:ماذا يُوجد في داخل هذه البذلة البيضاء إنسان ذو قيم وأخلاق؟ أم مسخ وقذارة مختبئة وراء ابتسامة عريضة وعطر فواح وجميل.

فالإنسان يُقَوَّمُ من ثقافته، وليس من مدنيَّته رغم أهميتها.

فعندما نشاهد هذا الإنسان المثقف لا نملك إلا أن نشعر بالاحترام والتّوقير له، والإعجاب بسُلُوكه الذي هو مرآة لما في نفسه، لأن قيمة الإنسان بما ينفع النّاس من خير وصلاح، لذلك كان الدّخول إلى الجنة مرتهنا بالعمل الصّالح. قال تعالى: {الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} النحل32.

فالحب كمفهوم بين النّاس (وليس للأشياء) قائم أساساً على الاحترام والتّوقير، والإعجاب نتيجة تحقق الثّقافة في الطّرف الآخر ابتداء، **فينمو الحب في قلب الإنسان تجاه هذا الإنسان المثقف عند تحقق المتابعة والالتزام به اجتماعياً وثقافياً**،قال تعالى: {قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }آل عمران31، وقال الشاعر:

أتعصي الإله وتزعم حبه..... إن ذاك لعمري في القياس شنيع
لو كان حُبّك صادقاً لأطعته......إن المُحب لمن يُحب مطيع

فيكون الدّافع للحب قد بدأ من الخارج إلى الدّاخل، بعكس الصّورة الأولى المَرْضيّة التي بدأ الحب فيها من الدّاخل إلى الخارج.

صديقتي العزيزة: بهذا الشّرح المختصر نكون قد وضعنا إصبعنا على مصدر شرارة الحب ؟ وقد عرفنا **أنَّ الحب غير الإعجاب الصّوري وغير الواجب**.

فالإنسان في حياته الاجتماعية يقوم بكثير من الأعمال والسُّلُوكيات من منطلق الواجب، سواء الواجب الشّرعي، أم الواجب الأخلاقي، أم الواجب الاجتماعي، إلى غير ذلك، نحو أن يُحسن الإنسان في التّعامل مع والديه، فالمطلوب هو الإحسان وليس الحب، لأنَّ الحب ـ كما ذكرت ـ قائم على الاحترام والتّوقير والإعجاب الدّاخلي في النّفس نتيجة ثقافة الطّرف الثّاني، فإن لم تتحقق الثّقافة في الطّرف الثّاني، انتفى الحب له، ولكن يبقى مفهوم الواجب شرعاً أو أخلاقاً قائماً في الإنسان يتعامل مع الآخرين بموجبه، نحو أن يقوم الإنسان بإنقاذ إنسان آخر مشرف على الغرق، أو غير ذلك، وهو لا يحبه. **وانتفاء الحب لا يعني وُجُود الكره والحقد، فيكون سُلُوك الإنسان المثقف في المجتمع نابعاً من مَعين قيَمه وأخلاقه، وليس من ردَّات فعل لسُلُوك الآخرين**، وقديماً قيل: **كل إناء بما فيه ينضح**.إذن الحب مفهوم قابل للتّعدد والكثرة، فنحن نحب الله لما أنعم علينا من صحة وعافية، ونحب والدينا لأنهما كانا سبب وُجُودنا في الحياة الدّنيا بصُورة واعية عاقلة، ولما بذلاه في تربيتنا حسب إمكانيّاتهما الثّقافية والعلمية والمادِّيَّة{لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا} البقرة286 ونحب أخوتنا وأصدقاءنا و سائر النّاس.

إذن؛ الحب مفهوم إنساني ثقافي عام كبير يسع النّاس جميعاً،ولابد من ترجمته إلى إتباع وطاعة، و عمل إيجابي صالح، وتضحية،وإذا انتفى الإتباع والطاعة والعمل انتفى الحب ليحل محله الأنانية والنرجسية.

صديقتي سعاد: أردت من ذلك الشّرح توصيل **أنَّ الحب لا يشترط له أن ينتهي بالزّواج، لأنَّ الزّواج هو مشروع اجتماعي له مقومات أخرى لازمة للقيام به،** وأول المقومات هي تحقق الاحترام والتّوقير والإعجاب عند الطّرفين جميعاً، وهذا يكون نتيجة الثّقافة التي يحملها الطّرفان بالحد الأدنى، فإن هبطت ثقافة أحدهما دون حدّها الأدنى يعني ذلك أنَّه فقد احترام وتوقير وإعجاب الطّرف الثّاني، ويكون الحب من الأضعف إلى الأقوى ومن المغمور إلى المشهور فقط.ومن البديهي أن يكون هذا الضرب من الحب غير متبادل، وهذا شائع في حياتنا الاجتماعية، فكثير من النّاس محبوبون لثقافتهم (قيم وأخلاق وعلم)، والمحبوب لا يدري بحبهم ذلك.

إذن؛ الزّواج ابتداء ينبغي أن يكون قائماً على مفهوم الاحترام والتّوقير والإعجاب المتبادل، ويأتي بعده الإعجاب الصّوري، ولكن ليس كشرط واجب تحقيقه، فإن رغب هذان الطّرفان المتحابان بالزّواج، لابد من تحقق شروط أخرى بصُورة لازمة لبناء مشروع الأسرة، **وفي طليعتها امتلاك ناصية المقدرة المادِّيَّة لتأسيس أسرة وضمان استمرارها،** فما ينبغي أن يُنظر للخطوة الأولى فقط، نحو إمكانية وُجُود غرفة النّوم وتكاليف الحفلة، وبعد ذلك تنعدم المقدرة

وتصبح الأسرة عالة على المجتمع، و **الإنسان العاقل لا يُقدم على أمر من خلال النّظر إلى بدايته فقط، بل لابُدَّ من التبصر بمآله ونهايته،** ما هي النتائج المنطقية التي تُوحي المقدمات بها أهي سلبية أم إيجابية ، فاشلة أم ناجحة، وبناء على هذه الرّؤية المستقبلية يتخذ القرار بالإقدام على العمل، أو يترك ذلك، **لأنَّ الأعمال بخواتيمها**.

والتّكافؤ بين الطّرفين لابد منه، كما أنَّ المقدرة المادِّيَّة لاستمرار الزّواج شرط لازم. **أما الحب بمعنى الميل والانسجام** مع الطّرف الثّاني فهو شُعُور يمكن أن يتحقق بعد الزّواج جراء التّعامل السُّلُوكي والنّفسي بينهما،{هَلْ جَزَاء الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ } (الرحمن:60)

فينمو هذا الشُّعُور مع الزّمن، ويستمر إلى ما لانهاية ما دام الزّواج قائماً بناءً على الاحترام والتّوقير لكل منهما نتيجة وُجُود الثّقافة في حدها الأدنى على الأقل .

أما الحب **بمعنى الشُّعُور بميل جنسي**(عشق) نحو الطّرف الثّاني، فهذا ليس حباً، وإنَّما شهوة ينبغي السيطرة عليها، وقيادتها حسب الثّقافة.

إذن؛ الحب لإنسان ما ليس بالضّرورة أن ينتهي بالزّواج منه، فهو حب من منطلق إنساني ثقافي، ويمكن أن يتطور إلى ميل وانسجام معه فيصير صديقاً أو صديقة.

فإذا أراد هذان المتحابان أن يتزوجا فلابُدَّ من تحقق شروط الزّواج الأخرى، وإلا فهما صديقان لا يَصلُحان للزّواج. **فليس كل صديق أو صديقة يصلح للزّواج به.**

صديقتي العزيزة سعاد: لا أريد أن أطيل عليك، فأنا لست بمقام المحاضر الذي يُلقي محاضرة عليك، وإنَّما أنا صديق أقوم بواجبي الثّقافي نحوك.

فهل صورة العلاقة بينك وبين أبي زيد قائمة على الحب الذي شرحته لك؟ لا أريد جواباً منك فأنا أدرك مدى الحرج في ذلك، ولكن أريد أن تُعيدي دراستك للموضوع ابتداء من نوعية العلاقة، أهي قائمة على الحب أم على الإعجاب الصّوري؟ وأن تمسكي بيدك ورقة وقلماً وتكتبي ذلك، فإذا رجح عندك مفهوم الحب حسب ما ذكرت من دلالة له، فقومي بدراسة ثانية؟ وهي هل يصلح هذا الصّديق لمشاركته في القيام بمشروع الزّواج، ابتداء من وضعه الاجتماعي، وصلاحيته **كزوج**، وصلاحيته **كأب**، ومقدرته المادِّيَّة أهي **مستمرة أم مؤقتة**، وغير ذلك ممَّا تريدين تحقيقه من الحياة الزّوجية، لأن هذه الأمور سوف تتفاقم مع الزّمن كمشكلات وأزمات سوف تعصف بمشروع الزّواج، وتطيح به فهو يفتقر إلى أساس متين يصونه، وينتهي بالفشل، ولكنه فشل ذريع، ومصاب فظيع تدفع المرأة وأسرتها ثمنه باهظاً، وخاصَّة إذا كان يُوجد أطفال فيدفعون ثمن خطأ والديهما.

صديقتي العزيزة: ***انتبهي ليس كل إنسان يصلح أن يكون صديقاً، وليس كل صديقٍ يصلح لأن يكون زوجاً، فكل مقام له شروط يجب أن تتحقق به.***

وانتهى الاجتماع بين الزّملاء والأصدقاء دون أي تعليق من سعاد، وانصرفوا وكلهم أمل أن تُنصت سعاد لصوت المنطق فلا يتم هذا الزّواج.

إصرار سعاد على الزواج

ولكن الرياح تجري بما لا تشتهي السفن، فسعاد في واد آخر غير الوادي الذي فيه زملاؤها، فلم تدرك أولم تتفاعل مع مضمون الحديث، وكعادة معظم الناس يَصُمّون آذانهم عن سماع الآخرين، ولا يمتثلون لنصائحهم، وركبت سعاد هواها وأصابها العناد، وقررت أن تخوض التجربة حتى نهايتها، مصرة على ذلك كإصرار الطفل أن يحصل على لعبة.

وعادت سعاد إلى البيت، وأخبرت أباها وأمها أنها قررت الزّواج من أبي زيد. وكانوا على معرفة سابقة به من خلال كلام سعاد عنه، فصعقهم القرار، وحاولا ثنيها عن عزمها، وسألها والدها وَجِلاً:

الأب: تتزوجين أبا زيد! هل تمزحين؟

سعاد: وهل يحتمل هذا الموضوع مزاحاً؟

الأم: يعني أنك تتكلمين بصُورة جدية!

سعاد: نعم، وما الغريب في الأمر، أنتم تقولون إنَّ الزّواج للبنت سترة، الزّواج للبنت حصن، ليس للمرأة مثل بيتها؟

الأب: نعم. نقول ذلك. ولكن ليس أبو زيد!

سعاد: وما لأبي زيد؟ أليس رجلاً؟

الأب: إنَّه متزوج وفقير وعنده أولاد!

سعاد: وأين وجه الغرابة وأنتم ترددون ليل نهار قوله تعالى: {إِن يَكُونُوا فُقَرَاءِ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } (النور:32)

الأم: فقراء؛ ولكن ليس بمستوى أبي زيد فإنه معدم تماماً، ويعيل أسرة هي أولى به وبماله منك !.

سعاد: ألم تلُحّوا عليَّ طوال هذه السّنوات بالزّواج، ها أنا أريد أن أتزوج، لماذا ترفضون؟

الأب: يا ابنتي نريدك أن تتزوجي اليوم قبل الغد، ولكن ليس بهذه الطّريقة! نحن نتكلم لمصلحتك أولاً، ولمصلحتنا ثانياً، وهذا الزّواج يجلب لك ولنا المشاكل الجمة من النّاحية المادِّيَّة والاجتماعية، فغداً حين يضربك ويهينك ويطردك، أين تذهبين؟ سوف تأتين إلينا! فنكون قد هربنا من تحت الدّلف إلى تحت المزراب، وإذا طلقك فالمشكلة أكبر، وإذا صار عندك أولاد فالمشكلة أكبر بكثير، خرجت من البيت واحدة وعدت أسرة، لن أرضى بهذا الزّواج مطلقاً، ولا تفتحي الموضوع مرة ثانية؟

سعاد: يا أبي؟ لقد بلغت من العمر ثلاثين عاماً، أنا راشدة ولم أعد صغيرة، وإما أن أتزوج أبا زيد برضاكم، أو أُقدم على الزّواج بطريقتي الخاصَّة، وهذا قرار نهائي لا رجعة فيه، وقد حددت يوم عقد زواجي بعد شهر من تاريخ اليوم.

لم يصدق الأب ما يسمع وتضرمت جمرات الغضب في عينيه و رفع يده حانقاً وصفع وجه سعاد بقوة، فارتمت كخرقة بالية من شدة الضّربة، واستسلمت للبكاء، وتدخّلت الأم بين الأب وابنته، واستشاط الأب غضباً وشتم سعاد ولعنها، وهددها إن فعلت ما قالت فهو بريء منها ولن يتعرف عليها مطلقاً.

وقال بصوت عالي ساخراً غاضباً : ليس ناقصنا إلا حمار تحضره إلى البيت وتقول أحبه يا بابا أريد أن أتزوجه أنا حرة باختياري!!!



وباءت كل المحاولات بالفشل الذريع ، وركبت سعاد رأسها، وبعد عدة أسابيع فاجأت سعاد زملاءها ودَعتهم إلى حضور حفل زفافها من أبي زيد!. فقرروا أن يقاطعوا هذه الحفلة، فهم يأنفون أن يكونوا شاهدين على هذه المهزلة السخيفة!.

وجاء يوم زّفاف عروسي الغفلة! وداهمت زوجة أبي زيد (عذاب) الحفلة باكية، تجر أطفالها الثّلاثة، وبدأت بالعويل والصّراخ أمام النّاس!.

وقالت: يا أبا زيد؟ إني بحاجة لعمل جراحي منذ وقت طويل وأنت لا ترد علي ولا تكترث، والأطفال بحاجة إلى كسوة وغذاء وتربية وتعليم وأنت لا تكترث.. فهل كنت تدخر المال لتتزوج مرة ثانية؟ أنت تريد أن تعيش على حساب السّت الهانم، التي لم تجد من الرّجال إلا زوجي الفقير وأنا المسكينة، حتَّى تأتي وتأخذه مني، و لو كان الأمر بيدي وأملك القوة والحماية لتركتك لها دون أسف عليك!، ولكن لا ألومك لأنك إنسان بالصّورة فقط، وجاهل وأناني، ولكن ألوم السّت الهانم المتعلمة المثقفة، كيف تُقدم على الزّواج من رجل معدم مادياً ومعنوياً أفشل بجهله زواجه الأول ! أيتها السّت الزّوجة الثّانية ماذا فعلت لك لتُسممي حياتي ؟ والمضحك أنك تعتقدين أن أبا زيد كنز وقعت عليه، اعلمي أنه غير صالح للزّواج أصلاً، وغير صالح لأن يكون أباً، وغير قادر على تأسيس أسرة، ومع كل مصيبتي معه جئت لتزيدي همي ومشاكلي وتنكدي عليّ حياتي؟

وبكت عذاب بصوت عال، وأخذت تولول، فجاء أبو زيد غاضباً ونهرها أمام النّاس، وصرخ بصوت عال: يا بنت! اذهبي أنت وأولادك وإلاّ...؟ فردت عليه عذاب وإلاّ ماذا يا أبا زيد؟ اظهر أمام السّت الهانم على حقيقتك، أخبرها أنك تضربني، وتضرب الأولاد أيضاً، وبعد ذلك تنام معي وأنا باكية، وتتركني فريسة آلامي الجسدية والنّفسية، ألعن حظي! فرفع أبو زيد يده الخشنة وهوى بها على وجهها فخرج الدّم من فمها وأنفها، وخاف الأطفال، وصرخوا: ماما ماما!... فتدخل النّاس سريعاً لائمين: عيب عليك يا أبا زيد! أما عندك أخلاق ورجولة؟ ألا تحترم وجودنا على الأقل؟ وكيف تُقدم على الزّواج وأنت غير قادر على قيادة أسرتك الأولى، ومقصر بحقها؟

فو الله ليس لك حق في هذا التّصرف الصبياني الأرعن ! ألا يُوجد كبير في عائلتك يضرب على يديك؟ وأنت يا ست سعاد؟ المفروض أنك متعلمة ومثقفة، ألم تجدي بين الرّجال إلا زوج هذه المسكينة لتأخذيه منها؟ ألا يُوجد كبير في عائلتك يفتح عينيك؟ صدق من قال: (**الذين استحوا ماتوا**) وصدق من قال: (**الثّقافة والأدب مقدمان على العلم**)، يا حيف عليك يا سعاد، ويا حيف عليك يا أبا زيد!.

وغادروا الحفلة مقاطعين هذه الجريمة الاجتماعية التي لم يطلها القانون لقُصُوره.



ومع كل ما حدث استمر الزّواج، وصارت سعاد زوجة أبي زيد، ومضت أيام وأشهر على زواجهما، وذاب الثّلج وظهر المرج وبدأ الجد!.وتجلت الخلائق الدفينة عارية من كل قناع وتصاعدت نبرة الحوار بين الزوجين حتى بلغت مرتبة الشجار ، واكفهر الجو ، ولاحت نذر الشقاق ، ومن ذلك هذا الحديث الذي دار بينهما ذات يوم:

سعاد: أين كنت يا أبا زيد؟

أجابها غاضباً: ألا يُوجد عندي غيرك، ليس من حق المرأة أن تسألني أين كنت أو إلى أين أذهب؟

سعاد: أبا زيد؟ إننا بحاجة إلى براد لنحفظ الطّعام؟

أبو زيد: لا أملك مالاً وعليّ ديون كثيرة، اشتريه أنت.

سعاد: صاحب البيت قد جاء عشر مرات يطالب بالأجرة!.

أبو زيد: أعطه أنت من مالك.

مضت أسابيع وأشهر، وسعاد هي التي تنفق على البيت، بل وزاد الأمر سوءاً وصار يأخذ المال منها ليدفع ديونه أو ينفق على أسرته الأولى. وظهر الحمل على سعاد. ومضت أشهر وحان وقت الولادة!.

سعاد: أبا زيد سوف ألد في هذا الأسبوع، والطّبيبة أخبرتني أنَّ الولادة سوف تكون قيصرية.

رد أبو زيد ساخراً: وماذا أفعل لك ، هل أنا طبيب لأجري لك العملية ؟

سعاد: إن كلفة العملية مرتفعة يجب أن تساعدني قليلاً؟

أبـو زيـد: أنـت رضـيت بي علـى مـا أنـا عليـه، فقـير ومتـزوج ولا أستطيع فتح بيتين.

سعاد: ولكنه ابنك الذي سوف يأتي.

أبو زيد: وهو ابنك أيضاً.

سعاد: الوضع صعب جدَّاً لا يُوجد معي مال يكفي لأجرة البيت والمصروف، ودفع أقساط أثاث البيت، والآن للولادة؟

أبو زيد: اذهبي إلى أهلك، وخذي منهم المال؟

وانصرف مغلقاً الباب بعنف.

وجلست سعاد تبكي، وتبكي دون أن تجد من يواسيها، وشعرت بمغص في بطنها وألم شديد، وشعرت بدم ينزف منها، فداست بقايا كرامتها المهدورة ودقت باب الجيران!.

سعاد: مرحباً يا سميرة، إذا سمحت هل من الممكن أن تذهبي معي إلى المستشفى؟. وشرحت وضعها لسميرة.

سميرة: طبعاً، ولكن انتظري لحظة لأرتدي ملابسي.

أخـذت سمـيرة سعاد إلى المستـشفى، وعنـدما وصـلتا قـام الطّبيـب المختص بفحـصها، وقـال: يجـب أن تـدخل فـوراً إلى غرفـة العمليـات لإجــراء العمليــة لأنَّ الجنــين في خطــر. ذهبــت سمــيرة إلى مكتــب الاستقبال لإجراء أوراق الدّخول، فقيل لها: لابُدَّ من دفع سلفة أولاً كــي يـستقبلوها في المـشفى. فرجعـت سمـيرة إلى سـعاد وأخبرتهـا بمـا حصل، فأجابت سعاد: لا يُوجد معي مال، هل معك شيء؟

سميرة: للأسف لا. ولكن لا تحزني ؟ معي عقد ذهبي سأودعه رهناً ريثما تتمكنين من دفع المال .

سعاد: حسناً شكراً لك لن أنسى معروفك معي أبداً.

ودخلت سعاد إلى غرفة العمليات، وطلبت من سميرة الاتصال بزوجها الموجود عند زوجته الأولى.

ومضت ساعة من الزّمن وسميرة متوترة تسير في غرفة الانتظار ذهاباً وإياباً، ومضت ساعة أخرى، فخرج الطّبيب وقال: أين زوج المرأة؟.

سميرة: إنَّه غير موجود؟ ماذا تريد منه؟

الطّبيب: المرأة بحاجة إلى دم لأنها تنزف كثيراً.

سميرة: وكيف وضع الجنين؟

الطّبيب: وضعه صعب لأنه تأثر بحالة التّشنج والانقباض، ولكن سوف ينجو إن شاء الله. المهم أحضري الدّم بسرعة؟

وقفت سميرة تفرك كفيها وتعض شفتيها، وتردد في نفسها: ماذا أفعل يا ربي ؟

وضاقت أمامها الدروب وتقطعت السبل فاتصلت يائسة بأهل سعاد فردت عليها أم سعاد بود: مرحباً سميرة كيف حالك؟

سميرة: أنا بخير والحمد لله، ولكن يُوجد موضوع يجب أن أخبرك به بسرعة: سعاد في غرفة العمليات تحت عملية قيصرية، وهي بحاجة إلى الدّم، وأنا لا أعرف ماذا أفعل؟

أم سعاد: أعطني عنوان المشفى وأنا قادمة فوراً؟

وهرعت أم سعاد إلى زوجها أبي محمد وصاحت به: ابنتك في المشفى، وهي بحاجة إلى الدّم؟

فانتفض أبو محمد وهبَّ واقفاً وهو يقول: ماذا تنتظرين إذاً؟ هيَّا نذهب بسرعة فزمرة دمي مثل زمرة دمها.

ووصل أبو محمد وزوجه إلى المشفى، وسارع إلى المخبر حيث خضع لاختبار سريع ثم مد ذراعه وبدأ دمه يتدفق حياة في شرايين ابنته .

ومضت ساعة، وساعة، ثم خرج الطّبيب ضاحكاً مستبشراً قائلاً لهم: الحمد لله على السّلامة، إن ابنتكم بخير، وقد رزقها الله طفلة جميلة، وهي بصحة جيدة، وبإمكانكم بعد قليل الدّخول للاطمئنان عليها.

تمددت سعاد على السّرير حزينة باكية، وجاءت الأم وعانقتها بحرارة، ودموعها تملأ عينيها، ودخل الأب صامتاً يجر قدميه على الأرض بتثاقل، ووصل إلى سرير ابنته، التي سارعت وأخذت يده تقبلها، وهي تبكي، وتردد: أبتاه سامحني ـ أبتاه سامحني؟ فرق لها وقبل رأسها وقال: لا بأس يا ابنتي، لا بأس يا قُرَّة عيني، فدمي وحياتي لك. فلما سمعت سعاد ذلك أجهشت بالبكاء وغطت وجهها بيديها تُخفي حزنها الصّامت الدّفين. ومضت ساعات وساعات، وانتهى اليوم، ولم يأت أبو زيد.



سعاد: ألم تتصلي يا سميرة ببيت زوجته؟

سميرة: نعم لقد فعلت وتكلمت مع زوجته وأخبرتها بما حدث وضرورة مجيء أبي زيد.

ودخل الطّبيب قائلاً: الحمد لله على سلامتك، بإمكانك الآن أن تخرجي إلى بيتك، ووقع الأوراق وخرج.

سعاد: كيف أخرج، ومن سيحاسب المشفى؟

سمعتها أمها فقالت: لا عليك يا ابنتي سوف أتدبر الأمر.

وخرجت الأم، واتَّصلت بأختها، وطلبت منها سلفة إلى أجل غير مسمى، نظراً للظُّرُوف التي هم فيها. فردت عليها الأخت بلهفة: الحمد لله على سلامتها أولا، سوف أحضر المال معي الآن.

وخرجوا من المشفى باستثناء أبي محمد فقد طلب الطبيب بقاءه في المشفى ساعات قليلة للاطمئنان بعد ظهور علامات الاعياء عليه بعد تبرعه بالدم، واعتذرت الخالة وذهبت وحدها، أما الأم وسعاد وطفلتها وجارتهم سميرة فقد أخذوا سيارة أجرة وذهبوا إلى بيت سعاد، وعندما وصلوا وضعت سعاد المفتاح في قفل الباب ليدخلوا فلم يفتح، حاولت مرة ثانية وثالثة بلا طائل، فأخذت سميرة المفتاح وحاولت بدورها وأيضاً فشلت. فدخلت سميرة إلى بيتها ورأت زوجها وأخبرته بقصة المفتاح.

فقال: نعم، لقد جاء صاحب البيت ومعه شرطيان ونفذ أمر إخلاء البيت لانتهاء عقد الإيجار، وعدم دفع الأجرة، وَغيَّرَ قفل الباب.

فخرجت سميرة خائبة، ووقع الخبر على سعاد مثل الصّاعقة، ووقعت على الأرض مغمى عليها، وطلبوا فوراً سيارة أجرة، وشكرت الأم سميرة على مساعدتها لهم، وركبت مع ابنتها والطّفلة في حضنها وذهبتا إلى بيتهما.

جاء أبو زيد مساءً إلى بيت عمه أبي محمد ليشاهد زوجه، فاستقبله أبو محمد كاظماً غيظه مبتسماً ابتسامة صفراء ناظراً له بازدراء!! وقال ساخراً: لم السّرعة يا أبا زيد!! لقد قامت القيامة وأنت لا تدري .

أبو زيد: لقد علمت الآن بالخبر.

سعاد: لقد اتَّصلنا بعذاب ألم تخبرك؟

أبو زيد: لم تخبرني بشيء أبداً. ولكني ذهبت إلى البيت وحاولت الدّخول فلم يفتح الباب، فطرقت الباب وقص علي زوج سميرة ما حدث، فسارعت بالمجيء إليك فوراً وأنا الآن هنا.

سعاد: الأمر على درجة من الخطورة، لقد أخذ صاحب البيت الأثاث كله عوضاً عن أجرة البيت، فماذا تفعل معه لاسترداد الأثاث؟ وأمي قامت بدفع كامل تكاليف العملية وقد استدانت المبلغ من خالتي!

أبـو زيـد: المهـم أنـك قمـت بالـسّلامة، أيـن الطّفلـة؟ أحـضروها لأراها؟

فأحـضرت الأم الطّفلـة، ورآهـا أبـو زيـد وحملهـا بـين ذراعيـه وقـال: تمنيت أن تكون صبياً! ولكن الذي حصل، حصل!. وجلس قليلاً ثم انـصرف إلى زوجتـه الأولى (عـذاب)، وعنـدما وصـل ناداهـا بـصوت غاضـب: عـذاب..عـذاب جعـل الله حياتـك كلهـا جحيمـاً ! لمـاذا لم تخبريني أن سعاد في المستشفى؟

عـذاب: ينقـصني حمـل هـم زوجتـك! هـذه مـشكلتك، مـاذا صـار معها؟

أبو زيد: لقد أنجبت بنتاً.

عذاب: هذا الذي ينقصنا، ضحية أخرى للمجتمع!.

أبو زيـد: نحن في مـشكلة، فهـي تطـالبني بكلفـة العمليـة، والبيـت الذي كانت تستأجره أخذه صاحبه لأننا لم ندفع أجرته وحجز على الأثاث...

عذاب: وما الذي يهمك في الموضوع؟

أبو زيـد: صـحيح! ومـا يهمـني، فأنـا عنـدي بيـت وزوجـة وأطفـال ولم أدفع شيئا حتَّى أخسر، فلماذا أحمل السّلم بالعرض، وابتسم ساخراً وكأنه استراح من هَمٍّ نزل عن ظهره!.

ومضت أيام وأسـابيع وسعاد عند أهلهـا، وأبو زيد يأتي كل بضعة أيام يزورها وينصرف.

صِدام سعاد مع الزوجة الأولى

تحسنت صحة سعاد، وصارت قادرة على الحركة والخرُوج من البيت، فقررت الذّهاب إلى بيت أبي زيد لتكلم زوجته الأولى. وعندما وصلت فتحت عذاب الباب لها.

ابتسمت سعاد بود وقالت: مرحباً عذاب؟

فردت عذاب بقرف وبرود: أهلاً ماذا تريدين؟

سعاد: هل تردّين ضيوفك عن بابك ؟

عذاب: وهل أنت ضيفة حتَّى أقول لك تفضلي!.

سعاد: أريد أن أتكلم معك قليلاً؟

عذاب: لا كلام بيننا!

سعاد: أليس من الأدب والاحترام أن تستقبليني في بيتك؟

فصاحت عذاب: عجباً!! انظروا من يتكلم عن الأدب والاحترام، أليس من الأدب والاحترام أن تستأذنيني قبل أن تتزوجي زوجي؟

سعاد: هذا موضوع آخر.

عذاب: كل المواضيع مُرتبطة مع بعضها.

سعاد: أرجوك دعيني أدخل إلى البيت؟

عذاب: لقد رجوتك من قبل: دعينا وشأننا فنحن عائلة فقيرة وأبو زيد غير قادر على إعالة نفسه حتَّى يعيل أسرتين فلم تستجيبي لندائي.

ملأت العبرات عيني سعاد وقالت: ياللك من ظالمة حقودة.

عذاب: أنا ظالمة؟ أنا التي أخذت زوجك منك؟ أنا واقفة على باب بيتك أريد أن أدخل واحتل البيت؟ هل تظنين أني لا أدرك مقاصدك هيا انصرفي؟ ليس لك عندي شيء، ولاتعودي فأنا لا أعرفك.

وأغلقت الباب في وجهها بشدة، وبقيت سعاد واقفة واجمة متجهمة الوجه تبكي غيظاً وحنقاً، وقررت أن تنتظر أبا زيد، وجلست على الأرض أمام البيت. ومضى وقت ليس بالقصير، وجاء أبو زيد، فرآها على الأرض وطفلتها بين يديها.



أبو زيد: ماذا تفعلين هنا؟

سعاد: جئت لأعيش مع زوجي، لأن وضع أهلي المادِّي لا يسمح ببقائي عندهم، وبيتهم ضيق وصغير.

قاطعها أبو زيد: ولكن منذ بداية الزّواج قلتِ أنكِ قادرة على استئجار بيت، فقومي وابحثي عن بيت؟

سعاد: معاشي الوظيفي لايغطي المصروف، فأنا ملتزمة بدفع أقساط أثاث البيت الذي تم الحجز عليه.

أبو زيد: هذه مشكلتك أنت، و لا دخل لي فيها، فأنا لم أضربك على يدك لتتزوجي بي، فقد حشرت نفسك بأنفي.

سعاد: هكذا تتكلم معي متناسياً التّضحيات التي قدمتها من أجلك، لقد حاربت أهلي وأصدقائي وكل النّاس حتَّى أتزوجك؟

أبو زيد: لأنك مغفلة!! ولو كنت مكانك لما فعلت ذلك. فأنا لم أستفد من كل ما ذكرت شيئاً، بل جلبت لنفسي همّاً فوق همي، وانطبق عَليّ المثل الذي يقول: حَمَل عنزة فانكسر ظهره فقال ضعوا الثّانية فوقها. وأعجبته فكاهته فضحك ساخراً من المثل.

سعاد: هكذا صرت عندك عنزة وَهَمّاً؟

أبو زيد: وهل تظنين نفسك أميرة لأنك تحوزين شهادة علمية، اعلمي أنني لا أشتري شهادتك بقرش صدئ.

شعرت سعاد بالحرج الشديد وسط جمهرة الجيران الذين قدموا مستطلعين سبب صراخ أبي زيد فقالت بلهجة أقرب إلى التوسل: لماذا لا ندخل إلى البيت ونكمل الحديث في الدّاخل؟

فصاح أبو زيد بأعلى صوته: عجباً تريدين أن تخربي بيتي! لا أستطيع أن أدخلك، فعذاب تولول وتجمع النّاس علينا.

سعاد: وما الحل عندك؟.

أبو زيد متهمكاً:أنا لم أضعك في هذه المشكلة، أنت وضعت نفسك فيها فالحل بيدك ولعل شهادتك تنفعك .

سعاد: ماذا تقصد؟

أبو زيد: لا أقصد شيئاً. سأقبل أي حل ترينه مناسباً فأنا لن أدفع شيئاً من جيبي كما أني لن أخسر شيئاً.

سعاد: أبا زيد اتق الله لديك طفلة الآن مني؟

أبو زيد: وماذا أفعل لها، عندي ثلاثة أولاد غيرها.

حاولت سعاد تخفيف حدّة الموقف وعزفت على أوتار العاطفة فقالت: هل نسيت كلام الحب الذي قلته لي قبل الزّواج؟

كشّر أبو زيد عن أنيابه وقال بفظاظة: يا لك من مغفلة وهل صدّقتِ هذا الهراء، ألا تعلمين أنَّ قلب الفقير المتزوج المهموم لا يعرف الحب من الدّب؟

سعاد: هل كنت تكذب علي ؟!

أبو زيد: ليس بمعنى الكذب، فعلاً أنا معجب بك، ولكن لا أريد أن يتحول ذلك الإعجاب إلى هم وغم وأولاد وأجرة بيت؟

سعاد: ما قصدك ؟

أبو زيد: قصدت أني لا أريد وجع رأس. إن أحببت أن تعيشي معي فأنا جاهز، استأجري بيتاً وأعطني عنوانه والمفتاح، و سوف أزورك بانتظام، ولكني غير مسؤول عن أي شيء أبداً، أبداً.

سعاد: ولكن هذا ليس زواجاً؟

أبو زيد: سمّه ما شئت، فهذا آخر ما عندي. والآن إذا سمحت أريد أن أدخل إلى البيت، فعودي إلى أهلك؟

سعاد: أبا زيد – أبا زيد؟

أبو زيد: بلا أبو زيد.... بلا أبو بطيخ! هيا انصرفي.

واستدارت سعاد منكسة رأسها وقفلت عائدة تجر ذيول الخيبة والنّدم، وغزتها نزغات شيطانية، وفكرت بوضع طفلتها أمام المسجد أو أمام باب بيت، واستعاذت باللَّه من ذلك، وضمت طفلتها إلى صدرها، وتابعت الطّريق إلى بيت أهلها.

وصلت سعاد وطفلتها إلى بيت أهلها، واستقبلتها أمها، وقرأت ما في وجهها من سطور الشقاء والخيبة، فلم تسألها عن شيء.

ودخلت سعاد صامتة شاردة حزينة إلى غرفة أخواتها، وأغلقت الباب خلفها، وانفجرت باكية وشهقت بصوت عال، فدخلت أمها مسرعة قائلة: سعاد حبيبتي تمالكي نفسك؟ ولكن سعاد استمرت في نوبة بكاء عاتية .



ومضت أيام، وأيام، وانتهت إجازة سعاد، وعادت إلى وظيفتها، فاستقبلها زملاؤها بنظرة شفقة ورحمة، ولكنها كانت تشعر بنظراتهم وهمساتهم تلاحقها وتُحمّلها كامل المسؤولية،ما أدَّى إلى انعزالها عنهم . فكانت تأتي إلى العمل صامتة حزينة وتعود كذلك، وتشاهد أبا زيد يتردد على المكاتب الأخرى يوصل طلبات الشّاي والقهوة ويوزع الضّحك هنا وهناك، وكأنَّ الأمر لا يخصه، حتَّى أنَّه قال مرة لها: متى تستأجرين بيتاً؟ لقد اشتقت لك!!. وهكذا مضى شهر وراء آخر، وسعاد تذبل وتمرض، حتَّى لم تعد تستطيع أن تمارس العمل، فأخذت إجازة دون راتب لمدة عام، وسجنت نفسها في البيت لا تكلم أحداً، ولا تخرج إلى أحد!واسودت الحياة في عينيها.

فقام أبوها واتَّصل بأبي زيد، وطلب منه الطّلاق وإنهاء الموضوع وُدّياً ؟ فرفض أبو زيد وقال: أنا غير مستعد لدفع أي قرش، لا لمحامي ولا لمؤخر ولا لتعويض ولا لأي شيء!.

فقام أبو محمد بتدبير بعض المال، وَوَكَّلَ محامياً، وتمت المخالعة بسرعة، وبُرِّئت ذمة أبي زيد من كل شيء، حتَّى النّفقة تخلى عنها أهل سعاد لأنهم يريدون الخلاص.

وانصرف أبو زيد ضاحكاً سعيداً بخُرُوجه من الأزمة دون خسارة تُذكر . وتردى حال سعاد من سيئ إلى أسوأ، وأصيبت بالاكتئاب، وأخذت تعامل طفلتها بعنف وقهر، وتجلس السّاعات الطّويلة صامتة شاردة الذّهن زائغة البصر لا ترى شيئاً من حولها،اختفت الألوان

ليحل محلها السواد، واستوى عندها الموت والحياة، وأحياناً يغلب الموت على الحياة، وتستسلم للنّوم أغلب وقتها هروباً من الواقع.

ومضت أشهر، ومرَّ عام على هذا الوضع المأساوي، حتَّى قرر أبوها وأمها وأختها مجتمعين أن يعرضوها على طبيب نفساني ليخرجها من هذه الحالة المدمرة، ويرجعها إلى وضعها الطّبيعي إنسانة إيجابية فاعلة في الحياة.



الفصل الثّاني

العلاج

إخراج سعاد من عزلتها

دخل أبو محمد على ابنته سعاد مقتحماً عزلتها، وأنار ضوء الغرفة مبدداً الظّلام، الذي لفت نفسها به. وهمس برقة وحنان: ابنتي سعاد العزيزة! حتى متى تبقين حابسة نفسك في هذا المكان؟

ذرفت سعاد دمعة صامتة وأسرَّت في نفسها: الآن صرت ابنتك العزيزة؟

أبو محمد: سعاد! انظري إلي، وارفعي عينيك عن الأرض، وتحدثي معي وشاركيني همومك؟

تململت سعاد، وحركت رأسها يمنة ويسرة، دون أن تلفظ أي كلمة أو تعليق.

أبو محمد: إنك تخرجينني عن صوابي! ماذا أفعل لك؟ وماذا تريدين هيّا أخبريني؟

سعاد: لا أريد منكم شيئاً! لقد انتهيت، إني أنتظر الموت، وسيأتي قريباً، أو ربما أستعجله!.

أبو محمد: كلنا سوف نموت، ولا يُوجد أحد خالد في الحياة الدّنيا.

لم ترد سعاد فتابع أبو محمد حديثه قائلاً:

ـ ابنتي سعاد: لقد ذابت قلوبنا حزناً فأنت تذبلين أمامنا ونحن لا نستطيع لك شيئاً، ففكّرتُ وأمك وأخوتك أن نرسلك إلى طبيب نفسي، لعله يساعدك ويخرجك ممَّا أنت فيه، فما رأيك؟

سعاد: أنا لست مجنونة يا أبي!حتى أذهب إلى طبيب نفسي.

فضمها أبو محمد إلى صدره بحنان وقال مشجعاً: ومن قال أنك مجنونة، لو كنت مجنونة لما تكلّمتُ معك أصلاً، ولما عرضت عليك الذّهاب إلى الطّبيب النّفسي. واعلمي يا بُنيّة أني لو كنت على مقدرة مالية جيدة لذهبت إلى طبيب نفسي ليساعدني على تحقيق توازني النّفسي، ويدلني على أساليب وطُرُق التّعامل مع المشكلات والضّغوط التي تُمارس علي.

سعاد: لن أذهب إلى أي مكان، ولن أبرح موضعي إلاَّ إلى القبر أليس هكذا تقولون؟

نفذ صبر أبي محمد وقال: آه ـ آه! لقد أتعبتني معك، وقلبت حياتنا جحيماً، وجلبت لنفسك ولنا مشكلة مستعصية كنا في غنى عنها، الذي فينا يكفينا وزيادة، لقد تكالبت علينا المشاكل والمصائب آه . آه....

سعاد: هل وصلك كلامي، قلت لك أني أنتظر الموت لارتاح وأريحكم مني: يارب – يارب...؟

وخرج أبو محمد غاضباً، وصفق الباب خلفه وهو يقول: لا حول ولا قوة إلاَّ بالله! حسبي الله ونعم الوكيل!.

واسته أم محمد: اصبر يا أبا محمد! عسى أن يفرج الله عنها وعنًّا؟

أبو محمد: وكيف يكون ذلك وسعاد عنيدة كالصخر ؟

أم محمد: اترك الأمور لرب الأمر يدبرها.

أبو محمد: وهل الأمور تسير من تلقاء نفسها دون أن نحرك ساكناً؟ إليك عني يا أم محمد! يكفيني ما أنا فيه!.

ومضت الأيام تسير ببطء وصمت قاتل، وخيم على جو العائلة حالة من الاكتئاب والحزن الظّاهر على الوجوه، لأنَّ السّرور والحزن عدوى اجتماعية مثل الضّحك والبكاء، وذات يوم جاءت صديقة سعاد تطمئن عليها ودخلت البيت قائلة: مرحباً أم محمد؟.

أم محمد: أهلاً وسهلاً بك يا ابنتي أمل.

أمل: كيف سعاد اليوم لعلها أحسن؟

أم محمد: كما تركتها في المرة الأخيرة، لا تخرج من غرفتها إلا للضّرورة، ولا تتكلم مع أحد.

أمل: وإلى متى تبقون صامتين مكتوفي الأيدي؟ لا تمدون لها يد العون والمساعدة، إنها تذبل يوماً بعد يوم أمامكم مثل الوردة تماماً فهل تنتظرون موتها؟

أم محمد: فأل الله ولا فألك. ماذا تقولين؟! إنها ابنتنا، ونحن نحبها، لكننا عاجزون عن مساعدتها، وهي تمنعنا من ذلك!.

أمل: المريض لا رأي له، ولا يؤخذ برأيه.

أم محمد: وماذا نفعل؟

أمل: سوف أذهب إلى طبيب نفسي، وأخبره بالقصة كاملة، وهو يرشدني ماذا أفعل. والآن أستأذن بالانصراف، وسوف أرى سعاد فيما بعد.

ولم تضيع أمل وقتها فقد أدركت أن سعاد في خطر جسيم، وأن الدقائق لها قيمتها التي لا تعوض، والموضوع حياة أو موت سواء على صعيد موت النفس أو موت الجسم وإنهاء الحياة، فذهبت إلى طبيب نفسي، وأخبرته بقصة سعاد كاملة.

فكر الطّبيب طويلاً ثم قال بهدوء: إنها قصة مؤثرة غنية بالدلالات النفسية، ولابدَّ أن تأتي سعاد بنفسها إلى العيادة لأراها بنفسي وأكلِّمُها، وتُكَلمني، وأقرأ أسارير وجهها، وأفسر حركات جسمها، وأراقب نَفَسَها ودقات قلبها، وأدخل إلى أعماق ماضيها لأفهم حاضرها، وأعالجه حتَّى أجعلها تسيطر على مستقبلها، وتوجهه بصُورة إيجابية فعّالة.؟

أمل: ولكن سعاد ترفض الخرُوج من البيت، والذّهاب إلى أي مكان.

الطّبيب: هل أنت مهتمة فعلاً لأمرها؟

أمل: نعم. إنها صديقتي، وأشعر بالحب والحزن نحوها!.

الطّبيب: هل أنت مستعدة لأن تكوني جزءاً من العلاج بصُورة أساسية، وتصبري على ذلك الوقت الكافي، وتبذلي جهدك وتتقيدي بتعليماتي ؟

أمل: إذا كان في ذلك إنقاذ وعلاج صديقتي فأنا مستعدة لهذا العمل الإنساني، والتّضحية بوقتي، والدّخول في هذه التّجربة الصعبة.

الطّبيب: سوف أعطيك تعليمات تطبقينها بحذر وذكاء، وكأنها تصدر منك بصُورة عفوية، وهذه التّعليمات احتمالية من حيث التّطبيق، وناجحة على الغالب من حيث النتيجة، وبالتّالي فأنت تملكين الحُرِّيَّة في التّحرك وإبداع أساليب وصُور على نمطها. فالمهم هو النّتيجة وليس الأسلوب، وسوف تبقين على اتِّصال معي وتخبرينني بما يحصل معك أولاً بأول، وسأقوم بتزويدك بالتّعليمات اللازمة والمناسبة لمقتضى تطورات الحال.

وفي اليوم التّالي ذهبت أمل إلى بيت أهل سعاد لتبدأ بتنفيذ تعليمات الطّبيب، وعندما وصلت، استقبلتها أم محمد بترحاب كعادتها.

أم محمد: أهلاً وسهلاً بعزيزتي أمل.

أمل: أهلاً بك يا خالة.

وأخبرت أمل أم محمد بما جرى بينها وبين الطّبيب، وعلى ماذا اتَّفقا، وطلبت منها أن تقدم المساعدة الممكنة.

أم محمد: كل ما تقولينه موافقون عليه، ولن ننسى لك هذا المعروف قط.

أمل: إنَّه واجبي يا خالة تجاه صديقتي، واعذريني الآن أريد أن أرى سعاد .

و قامت أمل وطرقت الباب على سعاد، واستأذنتها بالدّخول ، فجاء صوت سعاد واهناً ضعيفاً يخرج كحشرجة المحتضرين: تفضلي يا أمل .

أمل: مرحباً سعاد! كيف حال ابنتك اليوم؟

سعاد: آه!! أين ابنتي؟ لقد ذكرتني بها.

وقامت سعاد بإحضار ابنتها من عند جدتها، وأدخلتها إلى الغرفة.

أمل: كيف حالك يا شمس!يا شموسه؟ تعالي وانظري ماذا أحضرت لك من البسكويت واللّعب؟

فجاءت شمس ضاحكة تعدو وألقت نفسها على أمل، فأخذتها بحضنها، وعانقتها وقبلتها من وجنتيها، وأعطتها ما جلبت لها، وأخذت تساعدها في نزع أغلفة البسكويت، وتلاعبها، وشمس تضحك ببراءة، وكانت أمل تراقب سعاد من طرف خفي، فشاهدت الابتسامة ترتسم على وجهها كلما ضحكت شمس، وعندما ترقص شمس فرحة وترفرف بيديها يهتز جسم سعاد طرباً متناغماً مع حركات شمس، وبقيت أمل عند سعاد ساعتين من الزّمن، تلاعب شمساً فقط، وتراقب أثر ذلك على سعاد، ثم انصرفت واعدة بالعودة مرة ثانية في أقرب فرصة.ومضت إلى الطبيب والسعادة تفعم صدرها وابتسامة الظفر تُزيّن ثغرها المفتر .

وبعد مضي يومين، عادت أمل إلى بيت سعاد، وطرقت الباب، فسمعت صوت شمس تصرخ عالياً يا رب! تكون خالة أمل؟. وفتحت أم محمد الباب، فركضت شمس ورمت نفسها على أمل، التي أخذتها بالحضن وقبلتها! فقالت شمس: ماذا أحضرت لي معك اليوم؟

أمل: لقد أحضرت لك هدية جميلة جدًّاً، مثلك!.

شمس: أريد أن أراها الآن.

أمل: اصبري حتَّى نرى أمك أولاً.

شمس: هيا إذاً بسرعة.

وجذبت أمل من ملابسها. واعتذرت أمل من أم محمد ممَّا جرى.

أم محمد: لا بأس يا عزيزتي! أنا متفهمة تماماً كل ما يحدث، لن ننسى فضلك ما حييت ، وفقك الله إلى ما يحبه ويرضاه . .

أمل: مرحباً سعاد.

وقبل أن ترد سعاد صرخت شمس بصوت عالٍ:ماما–ماما انظري لقد جاءت خالة أمل، ومعها هدية جميلة جدًّاً. خالة ـ خالة هيَّا افتحي الهدية؟

سعاد: أهلاً أمل تفضلي.

أمل: تعالي يا شمس لنفتح الهدية معاً؟.

وأخرجت أمل علبة ملفوفة بورق أحمر جميل عليها شريط معقود بصُورة وردة وأعطته لشمس. التي نزعت الورق والشّريط بسرعة ولهفة، وعندما فتحت العلبة برز مهرج صغير يحمل في عنقه طبلاً، وفي يده عصا، وأدارت أمل المفتاح الجانبي، ووضعته على الأرض، فسار المهرج، وقام بضرب الطّبل بالعصا، فأصدر صوتاً جميلاً، فقامت شمس وبدأت تسير خلفه مقلدة له، ولما وقف أخذته، وأعطته لأمل كي تدير مفتاحه مرة ثانية، ولكن أمل أشارت لشمس أن تعطيه لأمها، فتوجهت شمس إلى أمها التي أدارت المفتاح بحماس، وتكرر

المشهد مرات، ومرات، وأمل تراقب سعاد مبتهجة لأنها استطاعت أن ترسم على شفتيها ابتسامة صغيرة وجعلتها تتفاعل مع ابنتها.

أمل: ما رأيك يا شمس لو وضعنا الطّعام وأكلنا مع بعض؟

شمس: نعم أنا جائعة جدًّاً!! وأريد أن يبقى معي أبو طبلة.

أمل (ضاحكة): هل أطلقت عليه اسم (أبو طبلة)؟

شمس: نعم. ألا ترينه يدق على الطّبل؟ فهو أبو طبلة.

وقامت أمل، وأحضرت بعض الطّعام الجاهز، وجاءت به إلى سعاد وشمس، ووضعت الطّعام، وطلبت من سعاد أن تأكل؟ ولكن سعاد لم تمد يديها إلى الطّعام، وبقيت صامتة واجمة! وشمس تنظر إلى أمها وإلى أمل! ماذا تنتظران، ولم تستطع الصّبر أكثر من ذلك فقالت: أريد أن آكل افتحوا لي علبة الطّعام؟

فقالت أمل وهي تتذكر تعليمات الطبيب البارع: شمس!! يا حبيبتي اطلبي من أمك فتح علبة الطّعام؟

شمس: ماما . ماما . افتحي لي علبة الطّعام أريد أن آكل؟

وحبست أمل أنفاسها ومدت سعاد يدها، وأمسكت بالعلبة وفتحتها، وأعطتها إياها فقامت شمس بتناول الطّعام فتنفست أمل الصعداء ، كل شيء يسير وفق مخطط الطبيب الحاذق .

أمل: يا شمس! ألا تريدين أن تطعمي أمك شيئاً من الطّعام؟

شمس: بلى، وأمسكت بقطعة من البطاطا المقلية وأعطتها لأمها قائلة: ماما خذي هذه القطعة إنها طيبة ولذيذة جدًّاً! وضحكت، فابتسمت سعاد وأخذت القطعة منها وأكلتها، وهكذا استمر الأمر



وأخبرت أمل الطّبيب بما حصل معها، والانطباعات التي أخذتها من الموقف.

أصغى الطّبيب بانتباه واستقصى بعض التفاصيل ثم قال: لقد اجتزنا المرحلة الأولى بسلام وجاء وقت المرحلة الثّانية، وهي إخراج سعاد من عزلتها.

وغابت أمل عن سعاد وشمس بضعة أيام، وكانت سعاد وشمس تنتظران قدومها على أحر من الجمر.

وجاءت أمل إلى سعاد، وقالت لشمس: اليوم سوف آخذك إلى الحديقة، ومدينة الملاهي، فقفزت شمس فرحة وهي تصرخ: ياي ـ ياي! وجرت إلى أمها، وقالت: ماما ـ ماما هل سمعت خالة أمل ماذا تقول؟ إنها تريد أن تأخذني إلى الحديقة يا سلام، يا سلام.

واتَّجهت شمس إلى أمل قائلة: هيَّا نذهب يا خالة ماذا تنتظرين؟

وضعت أمل يدها على قلبها وهي تقول: أنتظر أن تلبس أمك ملابسها كي تخرج معنا.

فجرت شمس إلى أمها مسرعة وهتفت ببراءة: هيَّا يا ماما ـ يا ماما! أسرعي في ارتداء ملابسك؟ ولكن سعاد بقيت واقفة واجمة لا تتحرك.

فجلست أمل على حافة السّرير، وظهر الامتعاض على وجهها! أما شمس فقد أمسكت بطرف ثوب أمها، وبدأت تجذبها، وهي

تصرخ هيَّا يا أمي ـ هيَّا يا أمي؟ أريد أن أذهب إلى الحديقة، فلم تتحرك أمها قيد أنملة. فانفجرت شمس باكية بصوت عال! فتدخلت أمل وقالت: حرام عليك يا سعاد! قومي من أجل شمس ما ذنبها؟ لماذا تعاقبينها؟ وتمنعينها من أن تعيش طفولتها ! هيَّا اخزي الشّيطان، وقومي وارتدي ملابسك؟ وتدخلت شمس وهي تنهنه باكية: ماما ـ ماما ـ الله يخليك قومي البسي ثيابك؟ وألحّت، وألحّت إلى أن تحركت الأمومة بنفس سعاد! فنزلت دموعها، وعانقت ابنتها، وقالت: سوف أذهب إلى الحديقة من أجلك فقط. هيَّا قومي وجهزي نفسك؟

فطارت شمس فرحاً، وأسرعت ترتدي ثيابها وحذاءها بمساعدة جدتها، التي كانت تراقب الحدث مذهولة، وخرجوا جميعاً إلى الحديقة، وهناك تركت أمل دفة الحديث بين يدي سعاد كما أوصاها الطبيب وتذكرت قوله: اسمعي يا أمل مصير سعاد بين يديك ، إن كسر قوقعة عالمها الداخلي سيسمح لها برؤية جمال المحيط الخارجي ، أريدها أن تسمع صوت الطبيعة الخالد، وترى الألوان على حقيقتها، وحين يستنير عقلها بالجمال ستحلق نفسها حرة، وستنتفي آلامها الجسدية، ولكن ضعي بين يديها زمام المبادرة دائماً.

كسرت سعاد رتابة الصمت وقالت:انظري يا أمل كيف يرمقني النّاس بنظرة الشّفقة والحزن؟

فردت أمل بهدوء: وما أدراك بما يعتمل في نفوس النّاس! هل يعرفونك أو تعرفينهم؟

سعاد: لا . لا يعرفونني ولكن هكذا أشعر.

ومرت بهم سيدة، وامتد نظرها إليهم، وتابعت طريقها.

فقالت سعاد متحسرة: هل رأيت نظرة السّيدة إليّ ؟

فقالت أمل بصبر: انتظري لحظة لأثبت لك أنَّ السّيدة لم تنظر إليك أصلاً، ولم تركِ كما تتوهمين.

واستدارت أمل ولحقت بالسّيدة وقالت لها: عفوا أيتها السّيدة الفاضلة هل أستطيع أن أتكلم معك قليلاً أنا وصديقتي؟

السّيدة: أوه! طبعاً لا مانع لدي.

أومأت أمل إلى سعاد فانضمت إليهما، وجرى تعارف سريع وأدارت أمل دفة الحديث القصير ببراعة حول المسائل العامَّة، ثم قالت للسّيدة بلطف: عفواً! يراودني سؤال أريد أن أعرف جوابه منك إذا سمحت؟

السّيدة: على الرّحب والسّعة.

أمل: عندما كنت تسيرين ووصلت قربنا لماذا نظرت إلى صديقتي سعاد ؟!

فردت السّيدة بصدق ظاهر: أوه! أنا فعلت ذلك لا أذكر.

أمل: بلى لقد نظرت إلينا، وكنت تُحركين رأسك يمنة ويسرة، والتقت عيناك بعيني سعاد!.

السّيدة: رُبَّما حصل ذلك، ولكن لا أذكر لأني كنت مشغولة بمسألة شخصية مصيرية، وأقلب نظري يمنة ويسرة، و أثناء ذلك ربما التقت أعيننا كما قلتِ بصُورة غير مقصودة مني. ولكن ماذا في ذلك إذا حصل، فجميع النّاس ينظرون إلى بعضهم! وإلا لماذا خلق الله لنا عيوناً، وخاصة أن صديقتك سعاد جميلة !؟

ابتسمت أمل شاكرة وقالت: لا يُوجد في الأمر أي شيء يتعلق بك، وإنَّما هو أمر شخصي كنت أناقشه مع صديقتي، وعلى كل لقد سُررنا بالتّحدث معك ونستأذنك بالانصراف، وفرصة سعيدة أن التقينا معاً.

وَجّهت أمل حديثها إلى سعاد التي بدت مرتاحة: هل سمعت يا سعاد كلام السّيدة! إنها لم تذكر أصلاً أنها رأتك؟.فالنّاس يا سعاد لهم همومهم ومشاكلهم، وعندما يسيرون في الشّارع، تلتقي أعينهم، ويكون ذلك بصُورة عفوية وغير مقصودة، ولا يذكر أحدهم ماذا رأى بعينه، لأن عقله مشغولٌ بأمر يخصه، ولكل واحد منهم دنياه، يصنعها بنفسه حسب رؤيته لها.

وتابعت أمل وسعاد السّير في الحديقة، وشمس تجري أمامهم تلعب وتضحك.

ووصلتا إلى مقعد بين الأشجار، فقالت أمل: ما رأيك يا سعاد لو جلسنا قليلاً على هذا المقعد لنراقب حركات شمس وهي تلعب؟

سعاد: يسعدني ذلك هيَّا بنا.

وجلست أمل وسعاد على المقعد تتأملان مناظر الطّبيعة الخلابة حولهما وزقزقات شمس تملأ الجو ربيعاً وبراءة .

نظرت أمل إلى وجه سعاد وسألتها: ماذا يعني لك النّهار واللّيل؟

سعاد: إنهما ظاهرتان فيزيائيتان تتشكلان من خلال دوران الأرض حول نفسها.

أمل: هل يختلف النّهار واللّيل من مكان إلى آخر على الأرض؟

سعاد: النّهار واللّيل ذاتهما في كل مكان، وإنَّما يختلفان في طول الوقت حسب دورة الأرض وعلاقتها مع الشّمس.

أمل: إذا كان النّهار واللّيل ظاهرة فيزيائية، لماذا يقول النّاس لبعضهم: نهارك سعيد أو جميل!. ويقول بعضهم: نهاري أسود حزين، وهكذا ؟

سعاد: لم يخطر في بالي أن أناقش هذا الموضوع! فهو بحاجة إلى تفكير.

أمل: ما رأيك أن نفكر به معاً، ونتحاور في ذلك؟

سعاد: لقد أصبحت فيلسوفة يا أمل قولي ما عندك في هذا الموضوع؟.

أمل: أنا أرى أنَّ النهار والليل لا علاقة لهما بسرور أو حزن، لأنَّ السّرور والحزن ليسا ظاهرتين فيزيائيتين.

سعاد: طبعاً.. طبعاً لا علاقة للنّهار واللّيل في ذلك.

أمل: إذاً، ماذا يقصد أحدهم بقوله: نهارك سعيد. سواء أكان ذلك في الشّتاء أم في الصّيف؟

سعاد: أظن أنَّ الأمر له علاقة بمفاهيم وشعور الإنسان، فهو يقوم بالتّعامل مع الزّمن والأحداث من خلال إسقاط انطباعاته وشعوره عليهما.

أمل: هذه نقطة جميلة وعظيمة. نعم عندما يحمل الإنسان شعور طيب وجميل ومفاهيم صالحة، فإنه ينظر من خلالها إلى الواقع خارج نفسه بمرآة نفسه، فيُسقط ذلك الانطباع الناصع على الأشياء من حوله، فيعبر عن هذا الإحساس بهذه الكلمات. نحو أن يقول: انظري إلى هذه البحيرة إنها تضحك لي . وانظري للشّمس إنها تبتسم، وتقوم باحتضاني من خلال أشعتها، ونحو هذه الكلمات، التي هي في الحقيقة إحساس ينبع من داخل الإنسان. فالبحيرة لا تضحك ولا تبكي، وكذلك النّهار واللّيل، فلا يُوجد نهار سعيد ونهار حزين، وإنَّما يُوجد مفاهيم يحملها الإنسان في نفسه، ويقوم بإسقاطها على الواقع. فالنّهار واحد لا يتغير، ولكن انطباع النّاس عنه مختلف حسب رؤيتهم ومفاهيمهم.

سعاد: أوه إنها فكرة جميلة، لماذا لم أناقش هذا الموضوع من قبل؟

أمل: هناك جملة من المواضيع الهامَّة، التي يعيش الإنسان من خلال مواقفه منها علماً وجهلاً، ولا يناقشها، بل ولا يخطر في باله ذلك، رغم أهميتها وخطورتها في حياته.

وتدخل سعاد في حالة تأمل، وتنظر بعيداً إلى الأشجار والطّيور.

أمل: ما رأيك أن ننظر إلى الأشياء من حولنا دون إسقاط شعورنا عليها، وإنَّما نتعامل معها كما هي في الواقع تماماً؟

سعاد: وكيف ذلك؟

أمل: قومي معي إلى البحيرة لأريك البط.

وقامت سعاد وأمل، واتَّجهتا إلى البحيرة، وشاهدتا البط يسبح في الماء، ويغطس فيه بين الحين والآخر، وينفض ريشه بحركة اهتزازية، ويفرد جناحيه يضرب بهما الهواء، ويقوم الأطفال برمي كسرات الخبز، فيسارع البط لالتقاطه.

أمل: انظري يا سعاد إلى هذه اللّوحة الطّبيعية، التي صنعها الخالق في الواقع، كم هي جميلة بذاتها سواء أكنا متجهمين أم مسرورين؟ أعطني رأيك فيها، أريد أن أسمع ذلك منك فأنت شاعرة؟

سعاد: طبعا إنها تحلق بجناحي الجمال وتمتع البصر والبصيرة .

أمل: ألا ترين يا سعاد أننا كائنات حية مثلنا كمثل البط تماماً نمثل لوحة طبيعية جميلة في الواقع، ونحن جزء أصيل من اللوحة الربانية!.

سعاد: أوه! نعم إنها لفتة جميلة منك، ولكن ألا ترين أنَّ الإنسان يعكر صفو ونقاء وجمال هذه اللّوحة بتصرفاته السّيئة؟

أمل: نعم، الإنسان هو الذي يُفسد جمال البيئة، ويفسد نفسه، فتفسد اللّوحة التي ينتمي إليها!ومثله كمثل اللوحة التي انسكب الحبر عليها فتشوهت الألوان وتداخلت ببعضها.

وعادت شمس ضاحكة، وهي تقفز من الفرح كالعصافير، وضمت أمها بقوة، فعانقتها سعاد وقبّلتها بحنان غامر.

فعلّقت أمل على هذا المنظر المفعم بالشعور والجمال قائلة: انظري يا سعاد كم هي جميلة هذه اللّوحة، التي صنعتِها بمهارة فطرية مع شمس التي أضاءت قلوبنا بضحكتها البريئة الصافية، احفظي هذه الصورة البديعة في ذاكرتك، وتصوّريها عن بُعد، لتري كم هي جميلة هذه اللّوحة، واعلمي أنَّ الإنسان هو الذي يصنع اللّوحات التي يعيشها في الواقع.

وانتهى النّهار، ومالت الشّمس على المغيب، فقالت سعاد: ودّدت ألا ينتهي هذا النهار ولكن داهمنا المساء وأوشك الليل أن يُخيم، هيّا نرجع إلى البيت قبل أن يحل سواده.

وعندما وصلت سعاد وشمس إلى البيت. استقبلتهما أم محمد بالأحضان وعانقتهما وقبلتهما جميعاً. وصرخت شمس: جدتي — جدتي! كم سررت في الحديقة، لقد رأيت البط، إنَّه جميل جدّاً، وله منقار عريض.فضمتها أم محمد وقالت لها: تعالي أخبريني عن كل شيء أعجبك في الحديقة.

ودخلت سعاد إلى غرفتها، ولأول مرة أضاءت المصباح لتشق سواد الليل، وفي الحقيقة لتطرد السواد من نفسها، وتركته مضاء، وتأملت نفسها في المرآة، وقالت هامسة: **إنني بطة جميلة أسبح في بركتي!**ودارت حول نفسها مرتين، واستسلمت لأحلامها، وغفت ملء جفنيها بارتياح لم تعرف له مثيلاً منذ زمن بعيد.



تفاؤل سعاد بالحياة

وفي اليوم التّالي، استيقظت سعاد، وعلى غير عادتها، قامت بفتح النّافذة، وسمحت لأشعة الشّمس بالدّخول إلى الغرفة، وقامت الشمس باحتضانها وشعرت سعاد بدفء عاطفي وسرور يسري في نفسها نتيجة العناية التي وجدتها من أمها الكونية الشمس، وجلست تراقب اللّوحات الطّبيعية التي خلقها الله، وقلّبت نظرها ما بين السّماء والأرض، مرتحلة كالنسيم المعطر من جزء إلى آخر خلال اللّوحة العظيمة المجسدة، التي تتصف بالحيوية، واسترجعت حوارها مع صديقتها أمل وتوقفت ملياً عند قولها: الإنسان هو الذي يصنع لوحته، ويُعطيها الأبعاد الجمالية، وذلك من خلال مفاهيمه وشعوره، التي يُضفيها على اللّوحة. وبينما هي في حالة التّأمل، دخلت أمها البشرية عليها قائلة:صباح الخير يا سعاد؟! وشكلت هذه الجملة الطيبة تاجاً كلّل التّأمل السابق بدفء إنساني رائع، فردت سعاد من أعماق قلبها:صباح الخير يا أمي. ورسمت على شفتيها ابتسامة خفيفة!.

وهكذا صارت سعاد تغادر غرفتها، وتساعد أمها في شؤون البيت،وتستمد قوتها من أمها الكونية الشمس صباح كل يوم، وتجلس

مع شمس تُلاعبها، ولكن الحزن الكبير ظل كامناً داخلها كالوحش المتحفز، ومضت بضعة أيام، وجاءت أمل لزيارة سعاد، ودخلت البيت، واستقبلتها سعاد بحفاوة، فاستبشرت أمل في نفسها خيراً كثيراً.

أمل: مرحباً يا سعاد نهارك سعيد!.

ردت سعاد بابتسامة مشجعة: أهلاً أمل نهارك أسعد!.

أمل: ما رأيك يا سعاد لو خرجنا قليلاً إلى الحديقة لتلعب شمس، ونمارس نحن رياضة المشي السّريع؟

سعاد: لا مانع إنها فكرة جيدة.

وخرجتا إلى الحديقة تمارسان رياضة المشي، ومضى ساعة من الزّمن فتعبتا، وتهالكتا على أقرب مقعد ضاحكتين .

أمل: كيف حالك يا سعاد؟.

سعاد: إنني بخير.

أمل: ما هو شُعُورك الآن صفيه لي؟

سعاد: أشعر بالخفة، أحس وكأني أطير، لقد أزال المشي الطّويل عني هموماً ثقيلة كالجبال، لا أدري أين ذهبت، لعلها تساقطت أثناء المشي، وأخفت ابتسامة صغيرة!.

أمل: إن مُمارسة الرّياضة بين النّاس، وبصحبة بعض الأصدقاء، يُشكل لوحة جميلة، ينعكس هذا الجمال على الفرد، فيذوب في

الجماعة، ويشعر بشُعُور اللّوحة كلها، من سرور وراحة وهدوء وصفاء في نفسه.

إن الإنسان يا سعاد كائن اجتماعي، لا يستطيع أن يعيش منعزلاً، بل لابد أن يكون جزءاً من لوحة كبيرة، له دوره ووظيفته المنسجمة مع الآخرين، ليشكلوا معاً صفة التّكامل من خلال العلاقات المتبادلة.

وتشعّب الحوار بين سعاد وأمل، ومضى على ذلك أيام وأيام، وأمل تأتي إلى سعاد وتخرجان معاً لممارسة رياضة المشي، التي تنتهي بجلسة يتم فيها تبادل الحوار والأحاديث، فتعزّزت علاقة سعاد بأمل، وتوطّدت الثّقة بينهما، ونما الحب في قلبيهما كصديقتين حميمتين .

وذهبت أمل إلى الطّبيب، وأخبرته بنتيجة العمل، وما حققت إلى الآن من نجاح مع سعاد.

فأبدى الطّبيب ارتياحه وقال: إن ما قمت به يدل على حبك الصادق لسعاد، ويدل على الشُّعُورالإنساني النّبيل، الذي تحملينه في داخلك، وأنا فخور بك لأنك طبقت التّعليمات بنجاح وذكاء، لقد اجتازت سعاد بفضلك مخاطر شديدة ، وحان الوقت للانتقال إلى المرحلة الثّالثة والأخيرة، وهي أن توافق على مقابلتي، لوضع النّقاط على الأحرف، وإعادتها إلى الحياة الاجتماعية الفاعلة، وهذه المرحلة لا تستطيعين أن تقومي بها أنت رغم أنك قمت بالمهمة الموكلة إليك

على أكمل وجه،وتم علاج المرحلة الأصعب، لذا؛ لابد من خبير مؤهل حتَّى لا تُصاب النّفس بانتكاس، لأنَّ النّفس سريعة التّقلب.

أمل: أرجو أن أنجح في إقناعها بزيارة عيادتك قريباً إن شاء الله.

ودأبت أمل وسعاد على الخروج إلى الحديقة، ومُمارسة رياضة المشي، وتنهيان نزهتهما بالجلوس على مقعد في الحديقة حيث تتبادلان أطراف الحوار في مواضيع كثيرة، و ذات يوم جرى الحوار التّالي بين أمل وسعاد:

أمل: ما رأيك يا سعاد في علم النّفس؟

سعاد: لا يُوجد عندي أي معلومة عنه!

أمل: قصدت هل هو علم له قوانينه ونظامه؟

سعاد: من المفروض أن يكون كذلك وإلا فليس هو علماً.

أمل: هل تظنين أن هذا العلم يساعد الإنسان على فهم نفسه ومعرفة كيف يتعامل معها ليحقق التّوازن في حياته؟

سعاد: ينبغي أن يكون كذلك.

أمل: أمن الخطأ أن يطلب الإنسان المساعدة من الآخرين لشيء لا يستطيع حمله؟

سعاد: بل الخطأ ألا يطلب المساعدة، لأن ذلك كِبْرٌ وجهل منه، وسوف يُتعب نفسه، ويفشل في النّهاية، فالنّـاس متكافلين، يساعدونك اليوم وتساعدينهم غداً.

أمل: جميل جدَّاً لقد وَفَّرْتِ علي عناء ومشقة الحديث الذي أريد أن أفاتحك به.

سعاد: وما هو هذا الحديث؟

أمل: أريد منك أن ترتادي عيادة طبيب نفسي كي يساعدك في عملية فهم نفسك، ويُعيد ترتيب الأوراق الدّاخلية المبعثرة، ليتسنى لك استخدامها بصُورة صائبة، وبذلك تُحققين التّوازن في نفسك، وتستردين صفة الفاعلية والإيجابية في حياتك الاجتماعية.

سعاد: منذ فترة رفضتُ اقتراحاً مماثلاً قدمه أبي، ولم تتغير قناعاتي كثيراً، ولكن أعدك أنني سأفكر في الموضوع بصُورة جدية، وأخبرك في أقرب وقت.

وبعد أيام اتَّصلت أمل بسعاد، وسلمت عليها وسألتها عن موضوع زيارة الطّبيب.

وغرّد قلب أمل فرحاً حين قالت سعاد: لا مانع لدي من زيارة الطّبيب، ولكن بشرط أن تذهبي معي؟

ردت أمل على الفور: موافقة وبكل سرور، فمتى تريدين الذّهاب؟

سعاد: أنت حددي اليوم ولك الأمر وعلي الطاعة ؟

أمل: شكراً على ثقتك سوف آخذ موعداً من الطّبيب وأخبرك.

زيارة الطبيب النفسي

وزفَّت أمل الخبر السعيد للطبيب، فحدد يومين في الأسبوع تزوره سعاد خلالهما ريثما تتعافى، وعندما جاء موعد الزّيارة الأولى، اتَّصلت أمل بسعاد، واتَّفقتا على مكان تلتقيان فيه لتذهبا معاً إلى الطّبيب، ووصلتا إلى عيادة الطّبيب، فشاهدت سعاد رجلاً مهيباً امتلأ رأسه شيباً، استقبلهما مبتسماً مُرحّباً قائلاً: أهلاً وسهلاً بكما تفضلا.

ودخلت أمل وسعاد إلى عيادة الطّبيب، وجلستا بجانب المكتب، وجلس الطبيب في مقعده بهدوء ووقار، مكرراً كلمات التّرحيب، ثم قال: خيراً إن شاء الله ممكن أن نبدأ التّعارف.

فقدمت سعاد نفسها، وعمرها، ومستوى دراستها، ووضعها الاجتماعي السّابق واللاحق، إلى غير ذلك، وسجّل الطبيب كل المعلومات في دفتر صغير أنيق.

وافتتح الطّبيب مراحل العلاج قائلاً: النفس الزّكية كالشجرة المباركة تطرح دائماً جناها المعسول ، والنفس الخبيثة مرتعها الشوك وثمارها الزقوم ، قد تنفرد إحداهما بسكنى الجسد، وقد تتزاحمان فيه، فيدور بينهما صراع هائل، فإذا اعتَلّت النفس يجب تشخيص علّتَها فوراً ، ويجب أن تعرفي يا سعاد أنَّ العلاج النّفسي ليس كعلاج الجسم، حيث يقوم الطّبيب بالمعاينة، ثم يكتب الدّواء، فيأخذه المريض وينصرف، وليس له خيار سوى الالتزام بالدّواء بغض النّظر عن قناعته

وشُعُوره، فالعلاج النّفسي قائم على المصارحة، والتّعاون بين الطّبيب والمريض، ولا يمكن فرض العلاج على الإنسان أبداً، بل لابُدَّ من قناعته وإرادته للشّفاء، وهذا لا يكون ابتداء إلا بعد أن يؤمن الإنسان أنَّه فعلاً محتاج لمن يساعده، وأنه في أزمة حقيقية مع نفسه تمنعه من تحقيق التّوازن والفاعلية.فهل أنت يا سعاد مدركة أنك في أزمة نفسية، وتريدين العلاج والمساعدة؟

سعاد: طبعاً، أنا مدركة تماماً لما تقول، وإلاَّ كيف وافقت على المجيء لعندك .

الطّبيب: يطيب لي أن أسمع ذلك منك ، إن هذه المعرفة خطوة عظيمة نحو الشّفاء وسوف تُذلل لنا الصّعاب، وتُقلل من وقت العلاج وتجود نتائجه .ويجب أن تعلمي أن علم النفس تطور تطوراً هائلاً ، وتعددت أساليب العلاج التي أعطت أفضل النتائج ، والعلاج يجب أن يكون ملائماً للتشخيص الصحيح ، فقد ظهرت عشرات الأمراض النفسية نتيجة الضغوط الهائلة التي يخضع لها الإنسان في عصرنا هذا ، فهناك الاكتئاب والرهاب والشيزوفرينيا والهستيريا وغيرها ولست بصدد إلقاء محاضرة حول ذلك ، ولكن من الناجع أن تطلعي على بعض أساليب العلاج التي سأعرضها بأبسط شكل ممكن: إن الأمراض النفسية قد تنشأ بسبب خلل عضوي في النواقل العصبية فتختل الصورة العيانية الحسية لتظاهرات الواقع ، وقد تشتد الحالة تبعاً لوضع المريض وبيئته المحيطة ، والطبيب يلجأ عادة إلى طرائق العلاج التالية:

الأدويـة ثم العـلاج الـسلوكي والعـلاج بـالتخليج الكهربـائي والعـلاج بالجراحة العصبية والعلاج النفسي والعلاج المائي والعلاج بالاسترخاء وغيرهـا وقـد يلجـأ الطبيـب إلى جمـع أكثـر مـن عـلاج وفقـاً لمـا تمليـه الـضرورة ، وأسـتطيع أن أؤكـد أننـا لـن نحتـاج للجراحـة الـتي تُـستعمل لعـلاج الحـالات المستعـصية كالوسـواس القهـري المعنـد الـذي يـشل المـريض تمامـا ولا للتخلـيج الـذي يكـون ناجعـاً في حـالات الفـصام الجمودي والهجمات الحادة ، ومن المرجح في حالتك تبعاً لما أراه أن نعتمـد بعـض الأدويـة باعتـدال كمـضادات الكآبـة لـدعم العـلاج السلوكي . صديقتي سعاد: أولاً وقبل كل شيء أريد أن أؤكد لك أنه لا يضيرك في شيء ولا يشينك أن تكابدي الآن آثار معاناة نفسية ، فكل إنسان يعاني بشكل أو بآخر من خلل ما يعتري شخصيته ، حتى أنا كطبيب تعرضت لذلك ، وخضعت للعلاج ، وقلة مثلك يملكون فضيلة الشجاعة للاعتراف بمعاناتهم النفسية وهذا الاعتراف سبيل للوصول إلى المعافاة ، ولبلوغ هذا الهدف علينا اقتفاء الجذور البعيدة، فإذا أردت أن تعرفي سبب حدوث الحدث الحاضر ولماذا أفضى إلى هذه النّهاية؟ لابُدَّ لك من معرفة كيف بدأ أولاً؟ ودراسة الحيثيات والمعطيات، التي رافقت الحدث، وساهمت في تشكيله .

لذا؛ أطلب منك أن تقومي بتقسيم مراحل حياتك، بحيث لا تتجاوز الفترة عشر سنوات، على أن تقومي بتلخيص أهم الأحداث، والمؤثرات، التي حصلت معك في كل فترة، وركزي على الوقائع التي

تركت فيك أثراً بقي كامناً في نفسك ويظهر إلى ساحة الوعي بصُور متنوعة من السُّلُوكيات السّلبية، وأنا سوف أساعدك في ضبط الأحداث وتوجيهها الوجهة الصّحيحة، والرّبط بين المؤثر الكامن في نفسك والسُّلُوك السّلبي.

واعلمي يا صديقتي أنَّ المعالجة النّفسية، تكون للنّاس الذين يتمتعون بالجرأة والشّجاعة، ولا يخافون من أن يطلع أحد على ما بأنفسهم من سلبيات، لأن عملية التّطور والرّقي والفاعلية والتّوازن لا يمكن أن تتحقق عند الإنسان إذا لم يكن صريحاً مع نفسه، ومع الآخرين، ويتقبل النّقد البنَّاء والنّصائح الإيجابية، وقديماً قيل: إن الإنسان هو مرآة لأخيه الإنسان. بمعنى أنَّ الإنسان يرى عيوبه من خلال عيون الآخرين. مثلاً إذا رأى أحد قذارة على وجه آخر وأخبره بذلك، لابد وفق معطيات المنطق السليم أن يكون الآخر مسروراً منه، لأنه رفع عنه القذارة التي تؤثر على منظر وجهه أمام النّاس، فلماذا يتشنج الإنسان إذا وجّه أحد إليه نصيحة متعلقة بسُلُوك سلبي، ويَعُدُّ ذلك هجوماً، وتجاوزاً للحدود، وما شابه ذلك؟. إن هذا السُّلُوك السّلبي هو بمثابة القذارة العالقة على الوجه، يُعطي انطباعاً سلبياً للنّاس، فينفرون من صاحبه، لأنَّ الإنسان كائن جمالي يحب الجمال والنّظافة والرّتابة. فكما نهتم بنظافة وجمال الصّورة، يجب أن نهتم بنظافة وجمال النّفس، من خلال تعهد أنفسنا، وترقية مفاهيمنا، ومراقبة سُلُوكنا، والاستعانة بالآخرين من أفراد الأسرة والأصدقاء،

وطلب المساعدة منهم في عملية تزكية النّفس، وتحديثها لتحقيق التّوازن والصّحة النّفسية، وبالتّالي يحصل الإنسان على المحبة والسّعادة، ويُكيّف سُلُوكه بحسب هذه المفاهيم، وكل إناء بما فيه ينضح، فمن كانت نفسه ملأى بالحب والخير، لا يصدر منه إلا الحب والخير، حتَّى لأعدائه، والعكس صواب، فمن كانت نفسه ملأى بالشّر الكراهية، لا يصدر منه إلا ذلك، ولو كان لأقرب النّاس إليه.وأخيراً اعلمي أن الغموض والضبابية تُلقي الإنسان في التهلكة فيما توجه الشفافية شراع النفس إلى مرافئ الأمان ، ومنذ هذه اللحظة يمكنك أن تعتمدي علي ، ولن أخيب لك ظنا إن شاء الله ، ويسرني أن أترك لك زمام الحديث فتفضلي وقولي ما تريدين .

تنهدت سعاد وقالت: شكراً على البداية الطيبة التي افتتحت الحديث بها، لأن ذلك أعطاني شجاعة البوح، وإظهار النقاط، التي أحاول أن أخفيها دائماً. أنا امرأة أنتمي إلى أسرة فقيرة، ومستواها العلمي متدن وكذلك الثّقافي، وعدد أفراد أسرتي ثمانية: الأب والأم وثلاثة ذكور وثلاث بنات، أي أننا من الأسر الكبيرة، ووالدي لا يتقن أية مصلحة، وزاول الأعمال البسيطة، فقد مارس قيادة مركبة عامَّة للأجرة، ومارس العمل في محلات الخضرة والبقول، وما شابه ذلك من أعمال غير مستقرة. أما والدتي فهي ربة منزل لا تعمل شيئاً. وأعمار أخوتي متقاربة، كما يحصل في معظم الأسر إذ يقوم الزوجان بعملية الإنجاب دون توقف، كل عام يأتي ولد فيتكدس الأولاد في

بداية حياة الزّوجين، ويصيرون عقبة في طريق تطور الأسرة، ونسكن في بيت أجرة، وهذه الظُّرُوف أدَّت إلى عجز الأبوين عن تأمين اللّباس المناسب، والطّعام الجيد، ناهيك عن حرمان الأولاد من الألعاب والتّرفيه، ويضاف إلى ذلك العنف والقهر الذي يمارس علينا من قبل أبوينا، غير التّفريق بالمعاملة بين الذّكور والإناث، وبين الإناث فيما بينهن. نشأت في هذه العائلة، وأنا الوسطى بين أخوتي الإناث، أما الذّكور فقد كان اثنان أكبر مني والثّالث أصغر مني.

وعيت على الدّنيا على صراخ وشجار والديَّ، وكانا يصطرعان دائماً، وتعرضنا إلى قهر مستمر وكنا نُنْهر إذا تكلمنا أو لعبنا...

فمنذ صغرنا نشأنا مقهوري النّفس، محرومين من أبسط متطلبات الحياة الطّيبة، يا الله كم كنّا نفتقد إلى الحب والعاطفة، وعندما بلغنا سن الدّراسة كما هي العادة ذهبنا إلى المدرسة، وهذا العمل ليس نتيجة وعي الأسرة، وإنّما لأنَّ الدّولة قد جعلت التّعليم إلزامياً في مرحلته الأولى، وترجمت ذلك عملياً، عندما جعلت التّعليم مجانياً دون مقابل، وهذا عمل عظيم بحد ذاته، لأنه لولا ذلك لانخفض التّعليم إلى أكثر من النّصف لوُجُود الجهل والفقر في الأسر.

ذهبت إلى المدرسة، وأنا أحمل في نفسي القهر والحرمان وانعدام الحب والعاطفة، واعتقدت أنني سأجد خلاصي في أحضان مدرستي ، لكني فوجئت أن الاضطهاد موجود في المدرسة أيضاً، فمنذ يومي الدراسي الأول ارتفع صوت المعلمة صارخة شاتمة لاعنة التّلميذات،

وهوت على أجسادنا الغضة بالعصا ووصفتنا بالحيوانات، وأمرتنا بالدخول إلى الصفوف، فَدَخلت مع زميلاتي، وأنا أرتجف خوفاً وهلعاً، وكان الأمر أشبه بمعتقل للأطفال، والعقوبة هي التّعليم الإلزامي بأساليب القهر والعنف والتّهديد، جلسنا في الصّف مثل المكدوس تماماً، فصار الصف أشبه بمهجع أو عنبر في أحد السّجون، فقد بلغ عددنا أكثر من خمسين طالبة في مساحة لا تتجاور ستة عشر متراً مربعاً، ودخلت المعلمة منتصبة القامة تضرب الأرض بقدميها وكأنها جنرال في مركز القيادة، وكانت تحمل في يدها عصا تضرب بها على يدها الأخرى لتسمع التلميذات صوتها لترعبهن نفسياً، وَنَظَرَتْ إليهن من علو وقالت: أيتها التّلميذات اعلمن أنني شديدة عتيدة لا أرحم أحداً يعصي أمري، وهذه العصا شاهدة على ذلك، وقد أسميتها أم دبوس! فالويل الويل لكُن من أم دبوس! ومضى أول يوم من المعتقل التّعليمي على خير وعدنا إلى البيت.

مضت أيام، وأيام على ذهابنا إلى المعتقل التّعليمي، وبدأت العلاقات الاجتماعية تظهر بين التّلميذات، وكالعادة كل مجموعة منهن تلتف حول بعضها، وتتكتل ضد مجموعات أخرى، وظهرت الأمراض والعقد بينهن، فهذه تُنعَت بالقصيرة، وتلك بالدّبة لسمنها، وأخرى بالضّفدعة، ناهيك عن الوصف بالألوان، فالبيضاء مثل اللّفت، والسّمراء مثل القمح، والسّوداء مثل الباذنجان، وغير ذلك من الصّفات، التي يقصد بها الإهانة. حتَّى أن ذلك السُّلُوك المشين وصل

إلى المعلمات أنفسهن، فصرن يطلقن على كل تلميذة مقصرة في دروسها أو مشاغبة نعتاً للسّخرية منها، فهذه بليدة، وأخرى غبية، وتلك هبيلة!....

وتعقدت الأمور أكثر بسبب إدراك التّلميذة للفرق في مستوى المعيشة بينها وبين زميلاتها وظهر ذلك بجلاء في كل الأمور: من حيث اللّباس، وأدوات الدّراسة، من حقيبة وأقلام ودفاتر ومصروف يومي، وكذلك الحديث عن مقتنيات بيوت الأغنياء من أدوات كهربائية وإلكترونية وأثاث جميل، وغير ذلك، ممَّا يصب في أذان الأطفال، ويدخل إلى نفوسهم شُعُوراً بالقهر والحرمان، الذي يصير تربة خصبة لنمو الكره والبغض للذّات قبل الآخر، وتضيق الحياة في نظر هذا الطّفل وينظر إليها بقرف وازدراء، ومع الزّمن تتفرع وتتكاثر هذه البذور وتنتج الإهمال واللامبالاة وبلادة الفهم، وانعدام التّفاعل والتّكيف الاجتماعي، واختفاء الحب والعاطفة والاحترام، ويحمل الطّفل كل هذه الصّفات إلى المرحلة اللاحقة، لتنمو بصُورة أسوأ نتيجة التّلاقح السّلبي مع الآخرين، فتظهر عنده صفات جديدة لم تكن موجودة سابقاً. ويتدخل في تربية الطّفل في هذه المرحلة، وما بعدها الإعلام المرئي الذي فرض نفسه على الأسر وأخذ دور الأب الثّالث إضافة للأبوين، لأنَّ الطّفل يجلس معه أكثر من جلوسه مع والديه. فصار الانترنيت والتّلفزيون بمثابة نافذة تطل على العالم كله، والذي يهم الطّفل أو الشّباب في مرحلته هذه، هو الشّهوات والمتعة

والتّسلية، فيبحث عنها من خلال هذه النّافذة العالمية ويفتحها ليدخل إلى بيته كل قاذورات العالم!. وتصب في نفس هذا الطّفل أو الطّفلة لدرجة التّغطية الكاملة له، ويغرق في مستنقع من الممارسات السّلبية الشّهوانية، لينتج عنها تكاثر وتوالد صفات أخرى لم تكن موجودة مسبقاً، وهكذا يتراكم في نفس الأطفال مفاهيم سوداوية نتنة وسامة، تقوم أول شيء بقتل صاحبها نفسياً ويظهر ذلك في سُلُوكه إما بصُورة إجرامية في المجتمع، أو ينعزل وينزوي لتقوم نفسه بعملية التّدمير الذّاتي!....

وكتمت سعاد غصة حارقة، ولم تستطع كبت حالة الهيجان في نفسها، التي ناهدتها منذ بداية الحديث، فخرج قلبها المعذب مع زفرتها الحرّى، وغطت وجهها بكفيها، واستسلمت لبكاء مر مؤلم .

هدَّأ الطبيب لواعجها الثائرة وقال مشجعاً: أحسنت لقد بدأت تُفصحين عن ال المتصارعة التي تغلي في أعماق اللاشعور لديك بصراحة وشجاعة، ونحن نتعامل الآن مع سلوك مقروء في ساحة الشعور الظاهر ، وهذا سيتيح لنا توصيفاً دقيقاً في طريقنا لتحويل المعاناة إلى معافاة، وأنا متفائل بأنك ستتجاوزين هذه الأزمة بأسرع وقت، وأنا سعيد لأنني سمعت منك هذه اللغة التعبيرية العالية التي تنم عن ثقافة أصيلة، وعلى كل لقد طالت جلستنا أكثر من ساعة وسأكتفي اليوم بهذا القدر فأنا لا أريد أن أشق عليك .

انفرد الطّبيب بأمل وخلصا نجياً، وطلب منها الاستمرار بتنفيذ تعليماته السّابقة الخاصة بسعاد، وركز على الخُرُوج من البيت، ومُمارسة الرّياضة الجماعية، والحوار الهادئ البناء بعد كل رياضة، و اجتناب المواضيع الشّخصية، وخاصَّة العاطفية، وتحفيز عملية التّفكير والتّحليل والتّركيب، والرّبط بين الأفكار، وإعادة النّظر في المفاهيم السّابقة، وبنائها حسب واقعها ضمن معطياتها المستجدة من منظور إيجابي.وختم حديثه قائلاً: حالة سعاد دقيقة ولكنها ليست صعبة ، وسيقع على كاهلك العبء الأكبر ، فسعاد تُعاني مبدئياً من اكتئاب شديد، وكل ما قالته مجرد جشاءات من هلاوس إدراك حسي معذب ومغيب، علينا أن نحث الجهد العقلي لمقاومة الأفكار المسيطرة ، وتحفيز أقنية القوة الذهنية ، لحماية جهازها العصبي المتهالك .

فشدت أمل على يد الدكتور مصافحة، وقالت بإخلاص منقطع النظير: أعترف أنني لم أفهم معظم ما قلت ولكنني سأفعل المستحيل من أجل سعاد ويمكنك أن تعتمد علي في كل ما تريد وهذا رقم جوّالي فزَوّدني بإرشاداتك وسأنفذها مع محاولة فهمها.



وانصرفت أمل وسعاد وتناهبتهما أحداث الحياة، وبعد بضعة أيام اتصلت أمل بسعاد وقالت: مرحباً سعاد، كيف حالك ؟

سعاد: الحمد لله ! وأنت كيف حالك ؟

أمل: بخير من الله، سعاد اتصلت بك لأعرض عليك حضور محاضرة في المركز الثقافي لنفس المحاضر.

سعاد: وما هو عنوان المحاضرة ؟

أمل: عنوانها:

(غطاء رأس المرأة أو شعرها حكم ذكوري وليس قرآنياً)

سعاد: إنه عنوان مثير وإشكالي في الفكر الإسلامي ويروقني كثيراً ويسعدني تلبية دعوتك ! فمتى وقت المحاضرة ؟

أمل: مساء اليوم .

واتفقتا على اللقاء أمام المركز الثقافي، وعندما وصلتا دخلتا مباشرة إلى قاعة المحاضرة وجلستا متجاورتين .

صعد المحاضر إلى المنصة فصمت الجميع احتراماً وألقى السلام على الحضور ورحب بهم وشكرهم على اهتمامهم، وبدأ محاضرته قائلاً:

قال الله تعالى:

{وَقل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاء بُعولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاء بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا

مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاء وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } (النور:31)

إن المدقق في النص القرآني كله لا يجد ذكر كلمة الرأس أو الشعر مستخدمة في النصوص المتعلقة بلباس المرأة، ما يؤكد ابتداءً انتفاء الدلالة القطعية على وجوب تغطية الرأس أو الشعر، وإن عملية الاجتهاد في مسألة إخراج حكم وجوب تغطية الرأس أو الشعر من القرآن إنما هي نتيجة ظنية أو وهمية، وهذه النتيجة الظنية المختارة من جهة معينة لا تنفي احتمال صواب النتيجة الأخرى . فالدلالة الظنية للنص ملازمة له لا يرفعها عنه كثرة أقوال لرأي دون آخر، ولا قِدم أحدهما أو تطبيقه في التاريخ واشتهاره، أو عدم وجود مخالف له في فترة زمنية طالت أو قصرت، أو تطبيق المجتمع الأول الذي زامن نزول النص إلى غير ذلك من الأمور . فالحجة في النص القرآني بذاته وما يدل عليه . {قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادةً قُلِ اللّهِ شَهِيدٌ بِيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُل لاَّ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ } (الأنعام:19)

{وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي إِنْ

أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ } (يونس:15)

أما السنة فهي طريقة عملية مرتبطة بالشعائر التعبدية ووظيفتها ليس التشريع أبداً. قال النبي الأعظم ﷺ(صلوا كما رأيتموني أصلي). أما الحديث النبوي الذي صح سنده ومتنه فهو تفاعل للنبي مرتبط بزمانه ومكانه حسب الأدوات المعرفية له، ولا يصح جعله مصدراً تشريعياً أبداً . قال تعالى آمراً رسوله: {قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } (الأنعام:151)

{وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ } (البقرة:170)

إن جميع الآراء الفقهية التي أوجبت غطاء رأس المرأة في التراث قد استبعدت القرآن من الدراسة والمرجعية، واعتمدت على فهم وتطبيق المجتمع الأول الذي زامن نزول النص القرآني، وتواتر هذا التطبيق تاريخياً في كل مجتمع إلى يومنا المعاصر !.

ولنناقش فهم ودلالة النص القرآني كوننا معنيين بالخطاب مثلنا مثل سائر الناس سابقاً، ولنا فهمنا وتفاعلنا . {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَـهَ إِلاَّ

هو يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } (الأعراف:158)

ينهى النصُ المرأة عن إبداء زينتها متضمناً بخطابه الأمر بالتغطية لها، واستثنى من الزينة زينة ظهرت من الأولى سكت الشارع عن وجوب تغطيتها وأخرجها من دائرة الوجوب إلى دائرة المباح، ومن المعلوم أن الشيء المباح لا يجب فعله، وإنما يأخذ حكم التخيير ما بين فعله وتركه،وذلك راجع لتقدير الفاعل حسب مصلحته إلاَّ إذا كان من الشؤون العامة المتعلقة بالمجتمع فيخضع هذا الإنسان في ممارسة المباح لأمر القانون منعاً أو سماحاً أو إلزاماً، وهو نظام وضعي لا قداسة له قابل للتغيير مع تغير الظروف والمناسبات .

فقال فقهاء التراث: إن الزينة قسمان: قسم أمر الشارع بتغطيته وأطلقوا عليه اسم (الزينة المخفية) . وقسم آخر سمح الشارع بإظهاره وأطلقوا عليه اسم (الزينة الظاهرة) وذهبوا إلى تحديد دلالة كلمة الزينة إلى (مكانية) وهي القسم المخفي من الزينة، (والشيئية) وهي مواضع الزينة الظاهرة للعيان، فأعطوا الزينة الأولى المخفية حكم وجوب التغطية، وأعطوا الزينة الظاهرة حكم إباحة الظهور .

وقاموا بتحديد مواضع الزينة الظاهرة من خلال زينة المرأة العربية التي زامنت نزول النص فقرروا أنها: كحل العينين، وحلقة الأنف، وقرطا الأذنين، وموضع القلادة من النحر، والخواتم والأساور، فوصلوا من ذلك إلى أن هذه المواضع التي تتمثل بالوجه والكفين هي المقصودة

بالزينة الظاهرة المسموح بعدم تغطيتها .

وقالوا: إن الزينة المخفية هي ما سوى ذلك من مواضع الزينة في جسم المرأة نحو الخلخال وما تضعه المرأة على عضدها وصدرها وما شابه ذلك فيجب تغطيتها وعدم ظهورها .

وبما أن النص القرآني خطاب لكل الناس، وصالح لكل زمان ومكان، ومضمون حركته إنساني وعالمي،يسقط الاستدلال بتطبيق المرأة العربية، وتقييد دلالة النص بزينتها **لأن التاريخ ليس مصدراً تشريعياً**، ولابد من تفعيل النص والتعامل معه بصورة مباشرة .

إن المرأة كلها زينة عدا (الفرج) الذي سبق الأمر بتغطيته في قوله تعالى: (ويحفظن فروجهن) ويكون الحفظ ابتداءً من الستر والتغطية مروراً بالطهارة المادية والصحية،وانتهاءً بالإحصان، وذلك لأن النص متعلق بمسألة اللباس، بخلاف النص الآخر الذي هو (والذين هم لفروجهم حافظون) فالحفظ يبدأ من الإحصان وينتهي بالستر والتغطية، وفعل (ظهر) في النص غير راجع للآخرين (للعيان) وإنما راجع للزينة ذاتها فهي زينة ظاهرة من زينة أصل لها (ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها) وإرجاع فعل (ظهر) للعيان باطل في واقع الحال لأن المرأة كلها ظاهرة للعيان! وهذا يؤدي إلى تناقض أول النص مع آخره لأن النتيجة سوف تكون أن المرأة لا تغطي شيئاً من زينتها لظهورها

كلها للعيان. ولو كان المعنى ما ذكروه لأتى النص بصيغة (ما ظهر لكم) ولم يأت بصيغة (ما ظهر منها).

كما أن مفهوم مواضع الزينة للمرأة متحرك ومتغير من مجتمع إلى آخر، ومن زمن إلى آخر حسب الثقافات والتطور المعرفي . فما يكون موضعاً للزينة عند مجتمع لا يكون زينة عند مجتمع آخر، وهكذا يختلف تحديد مواضع الزينة في المجتمعات الإنسانية . ما يدل على بطلان مفهوم الزينة التراثي لعدم المقدرة على تحديدها، ولذلك طالب أصحاب هذا الرأي بتقييد فهم النص القرآني بفهم السلف ليتخلصوا من حركة محتوى النص، وبهذا المطلب قاموا باغتيال العقل، وجعلوا النص القرآني قومياً مرتبطاً بثقافة العرب في زمان ومكان محددين، وأساؤوا لإنسانية النص القرآني وعالميته،فكانوا من الأسباب الرئيسة لانحطاط وتخلف المسلمين عن ركب النهضة والحضارة .

أما جملة (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) فقد قالوا: إن الخمار غطاء للرأس مستدلين عليه بأبيات شعر وغيره نحو:

قل للمليحة بالخمار الأسود ..... ماذا فعلت بناسك متعبد

وفاتهم أن استخدام دلالة الكلمة على احتمال واحد وصورة لها في الواقع لا ينفي صواب الاحتمالات والصور الأخرى لدلالة الكلمة . فالخمار غطاء بغض النظر عن مكان التغطية سواء أكان الرأس أم

الجسم أم أشياء أخرى، والنص لم يستخدم فعل الأمر بالتغطية أو الستر،وإنما أتى بفعل(الضرب) الذي يدل على إيقاع شيء على شيء يترك فيه أثراً. نحو ضرب الأمثال، وضرب الرقاب وما شابه ذلك، كما أن النص لم يستخدم كلمة (الرأس) وإنما استخدم كلمة (الجيوب) التي هي جمع (جيب) وتدل على الفتحة بين شيئين . والجيب في الثياب معروف ومن هذا الوجه ذكروا أن الجيوب هي فتحة الثياب من جهة العنق، وهذا الجيب أحد الصور والاحتمالات في الثياب . انظر إلى قوله تعالى خطاباً لموسى:

{وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ} النمل 12

فدلالة كلمة (جيوبهن) هي فتحات في ثياب المرأة ، أمر الشارع وشدّد على عملية الضرب عليها عندما تضرب المرأة في الأرض سعياً ونشاطاً ، أي عندما تريد أن تخرج إلى الحياة العامة يجب عليها التأكد من إغلاق وإحكام هذه الفتحات حتى لا يظهر من خلالها للناس ما أمر الشارع بتغطيته في الأمر السابق بصيغة النهي عن الإبداء (ولا يبدين زينتهن ...).

فأين دلالة وجوب تغطية الرأس أو الشعر في هذه الجملة (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) ؟ إلاّ إذا عدّوا أن الرأس هو جيب ! وعلى افتراضهم ذلك لا يصح هذا الاستدلال لتصادمه مع الأمر الذي قبله

إذ أتى بصيغة الحصر (لا يبدين .... إلا ما ظهر ...) والحصر يفيد الإغلاق على ما بعده ولا يسمح بإدخال أحد في المضمون من نص آخر . فما أعطاه الشارع حكم الإباحة بصيغة الحصر لا يمكن أن يأتي نص آخر ويعطيه حكم الوجوب أو التحريم، لاسيما أن الأمر بالضرب بالخمار على الجيوب لا يعني التغطية لساناً أو منطقاً رغم حصول ذلك حالاً على الغالب نتيجة لعملية الضرب، ولكن دون قصد لذلك، والمقصود من الضرب على الجيوب هو الحفظ لما بداخلها وليس لما يخرج منها !.

وعندما لم يجد الفقهاء برهاناً قرآنيا لجؤوا إلى مقاصد التشريع، مع العلم أنهم لا يقبلون أن تكون المقاصد مصدراً تشريعياً إلهياً لأن القاعدة تقول: (**لا تكليف إلا بشرع**) (**والأصل في الأشياء والأعمال الإباحة إلا النص**)

فمفهوم المقاصد يدور مع النصوص الشرعية ضمن علاقة جدلية، وإلا صار مفهوم المقاصد باباً لوضع تشريع لا نهاية له، ويختلف من مجتمع إلى آخر في الزمن الواحد، ويصير الدين ألعوبة بيد رجال الدين يحرمون ويحللون حسب ما يرون من مقاصد .

أما قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاء الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ

غَفُوراً رَّحِيماً } (الأحزاب:59)

فهو ليس نصاً تشريعياً،وإنما هو خطاب على لسان النبي ليقوم بتوجيه وتعليم المرأة أن تقوم باختيار لباس يضمن لها الحماية من الأذى الاجتماعي، ويحقق لها المعرفة من قِبَلِ الناس، لأن شكل اللباس يدل على الثقافة، ويكون رسالة للتخاطب بين المرأة والرجال، إما أن يكون خطاباً ثقافياً أو جنسياً، وعلى المرأة أن تختار طريقة تواصلها مع الرجال، فالجلباب هو لباس يحقق للمرأة الحِماية والمعرفة،وفي حال مخالفة المرأة لهذا التوجيه فعقوبتها ما يصيبها من الأذى أثناء نشاطها الاجتماعي. والنص لا يوجد فيه دلالة على غطاء الرأس أبداً .

لذا؛ ينبغي أن تترفع الأمة الإسلامية عن الخوض في معركة وهمية يثيرها الغرب أو بعض فئات من الشرق في هذه المسائل، لأنها ليست من الدين أصلاً.

ومن رجاحة العقل ألا يتم تقييم الإنسان من لباسه وشكله، أو الإنكار عليه، فالناس أحرار في حياتهم .

وشكراً لحسن إصغائكم

وناقش المحاضر الاعتراضات التي وُجهت إليه، وأجاب عن الشبهات والأسئلة .

أمل: ما رأيك يا سعاد في المحاضرة ؟

سعاد: إذا كانت دراسته للقرآن قد استوعبت النصوص كلها ففعلاً لا يوجد دليل صريح في الأمر بتغطية الرأس أو الشعر .

أمل: إذاً، وجوب تغطية الشعر أتى من خارج النص القرآني .

سعاد: نعم ! يبدو أنه أتى من أحاديث منسوبة إلى النبي، وتطبيق المجتمع الأول .

أمل: إذاً، الأمر برمته هو إتباع للآباء وتقليد للسلف !

سعاد: الأمر بحاجة للدراسة أكثر من ذلك، فينبغي أن نعرف مفهوم (السنة) والفرق بينه وبين مفهوم (الحديث النبوي)، وعلاقتهما بالقرآن من حيث التشريع والحفظ الإلهي،وهل يستقلان بالتشريع عن القرآن ؟ وهل نحن ملزمون بفهم المجتمع الذي زامن نزول النص القرآني أم غير ملزمين ؟

أمل:أسئلة كبيرة وهي بحاجة للجواب عليها .

وتوقف النقاش بينهما عند هذه النقطة وانصرفتا إلى بيتيهما.

الزيارة الثانية للطبيب

تركت زيارة الطبيب الأولى أفضل الانطباعات في نفس سعاد فانتظرت بشوق موعد الزيارة الثانية وعندما أزف خفّت إلى العيادة مصطحبة صديقتها أمل ، وحيّت الطبيب بحرارة: مرحباً دكتور.

الطّبيب: أهلا وسهلاً بك عسى أن تكوني بخير.

سعاد: الحمد لله أنا بخير.

الطّبيب: تفضلي واجلسي.

سعاد: شكرا لك أنا أتوق حقاً للبوح عن مكنونات نفسي.

الطّبيب: لقد ذكرت سابقاً ملخصاً لأهم المؤثرات والأحداث خلال عقد الطّفولة الأول، ولقد دونت ذلك في دفتري، وأنا مستعد لسماع أحداث المرحلة الثّانية المؤلفة كما اتفقنا من عشر سنوات.

سعاد:عندما بلغت سن العاشرة من العمر، ظهرت علي معا لم الأنوثة فتغيرت معاملة أسرتي لي. فكلما أردت أن أعمل شيئاً يقولون: عيب عليك، أنت بنت بالغة، وهذا عمل صبياني. وأصبحوا يتدخلون في طريقة المشي والجلوس والطّعام والضحك، وكل الأمور، حتَّى شعرت أني أعيش في سلسلة من القيود الحديدية، بل والأدهى من ذلك أن هذه الممارسة البوليسية من قبل والديَّ انتقلت إلى أخوتي الذّكور فصاروا يتقمصون دور الأب في غيابه، فأحدهم يطلب مني أن أكوي قميصه، والآخر يطلب وضع الطّعام، إضافة لتدخلهم في اختيار ثيابي هذا تلبسينه، وهذا لا تلبسيه، وأين كنت؟ وإلى أين أنت

ذاهبة؟. وعائلتي من العائلات المحافظة على تقاليد ومفاهيم ثقافية معينة، تلتزم قواعد صارمة للحرام والحلال، ولكن من وجهة نظر خاصة، فمثلاً: الموسيقا حرام، الجلوس مع الأهل الأقارب بصُورة عائلية حرام، التّصوير حرام، مصافحة الرّجال والتّكلم معهم حرام، وظهور شعر رأس المرأة حرام.. وهكذا مجموعة أمور محرمة تحكم العقلية العائلية، وكل ذلك يُطبق علينا فقط نحن البنات، لأن أخوتي الذّكور وأبي يجلسون مع ضيوف العائلة نساءً ورجالاً، ويتفرجون على التّلفزيون ويسمعون الموسيقا التي ترافق البرامج أو الأغاني، وينظمون الرحلات ويلتقطون الصور ، إلى غير ذلك من السُّلُوكيات المباحة لهم، والحرام علينا!! واستمرت حياتي العائلية بهذا النّمط مع ازدياد القيود كلما تقدم بي العمر، وظهرت عليّ معالم الأنوثة أكثر.

أما حياتي خارج البيت فقد كانت محصُورة بالمدرسة ذهاباً وإياباً فهي على عللها مخرجي الوحيد، فتمسكت بها كطوق نجاة أخير، وأدرك أبي وأمي وأخوتي الذّكور ذلك، فاستخدموا مسألة المدرسة كورقة ضغط وتهديد وابتزاز، فأي أمر يريدونه مني كان يتحقق تحت التهديد الصريح بإجباري على لزوم البيت ومغادرة المدرسة إلى الأبد، ولم يكن من خيار أمامي إلا أن أخضع لأوامرهم مكرهة، ومن أهم الأمور التي فرضت علي دون قناعة خالصة مني آنذاك أن أضع غطاءً يُخفي شعري وكنت في الثالثة عشرة من عمري ، وبغض النّظر عن مفهوم الفقه الديني في هذا الأمر فأنا كطفلة كنت أنظر إلى الموضوع

من خلال الممارسة الاجتماعية، فكثير من نساء عائلتي لا يضعن غطاء الرّأس، فكنت أتساءل في نفسي كيف يكون الأمر واجباً علي وأنا طفلة وغير واجب عليهن وهن الكبيرات؟!.

وأذكر أن معظم زميلاتي في المدرسة كن سافرات لا يغطين لا وجوههن ولا شعرهن ، والمفارقة أن البنت عندما تغطي رأسها يعاملها المجتمع ابتداء من الأسرة على أنها امرأة راشدة، فيصير لها لباس خاص يناسب خمارها، وتخضع لنظام سُلُوكي عجيب، وأي خُرُوج طفيف عنه يستلزم توبيخ البنت بالجملة المعهودة: تعقلي أنت لم تعودي صغيرة! صرت امرأة فانتبهي لسُلُوكك وألفاظك. وتراكمت المحظورات وأصيبت نفسي بعملية الانكماش، وبت مشلولة لا أقدم على أي أمر، وفقدت روح المبادرة والابتكار فإذا طلب مني شيء أتردد ماذا أفعل؟وماذا أختار؟ حتَّى يرضى غيري عني، وأتجنب توبيخهم، وفقدت حريتي، ولم تعد اختياراتي وسُلُوكياتي تمثل نفسي، وإنَّما تمثل إرادة أسرتي والمجتمع، ومع استمرار الزّمن انكمشت نفسي أكثر وانكفأت متقوقعة، وشعرت أني أكره نفسي، وفقدت حتى جرأة النظر إلى وجهي في المرآة، ربما فراراً من رؤية انكساري وهواني وهزيمتي ، وكرهت الحياة، وصرت أتساءل بيني وبين نفسي لماذا خلقنا الله؟ وأحياناً أخصص السّؤال أكثر فأقول: لماذا خلقني الله أنثى ولم أكن ذكراً حتَّى أتمتع بالحياة وأستخدم صلاحية الذّكر في التّحرك والاختيار؟..

واستمرت حياتي على هذا النّمط المكرر دون أي تغيير يذكر سوى أنَّ القيود تكبر كلما كبرتُ، وتشكلت شخصيتي من منظومة المفاهيم التي أجبرت على حملها من قبل أسرتي ومجتمعي، واستسلمت لمقولات مهينة نحو: الأنثى أقل شأناً من الذّكر، وأنَّ المجتمع يبيح للذّكر مالا يبيح للأنثى، والمجتمع يغفر للرّجل خطاياه، ولكن لا يغفر للمرأة، النساء ناقصات عقل ودين، و المرأة فتنة وشيطان، وأنَّ للمرأة ثلاث طلعات في حياتها:

الأولى: من رحم أمها إلى الدّنيا!...

والثّانية: من بيت أبيها إلى بيت زوجها!...

والثّالثة: من بيت زوجها إلى القبر!..

فكانت حياتي في هذه المرحلة دون طعم أو لون، إنها صُورة هزيلة باهتة انمحت ألوانها مع مرور الزّمن جراء تأثير الظُّرُوف المحيطة، وخلالها سمعت أبي وأمي وأخوتي يقولون لي آلاف المرات هذه الجملة:ما جدوى دراستك أنت في النّهاية سوف تتزوجين وتصيرين زوجة وأماً ولن تستفيدي من دراستك شيئاً؟. ونحن تركناك تستمرين في الدّراسة حتَّى لا تقعدي في البيت، ومن أجل رفع مواصفاتك كزوجة، لأن رجال هذا الزّمن يطلبون المرأة المتعلمة، وذلك حتَّى تعلم أولادها!. وهذا المطلب من الرّجال إنَّما هو لإضافة وظيفة مجانية للمرأة بجانب الطّبخ وجلي الصّحون وتنظيف البيت، وليس من أجل المرأة نفسها، ليتسنى لها نيل نصيبها من العلم الذي يؤهلها لمواكبة التّطور

وارتقـاء عطائهـا كموظفـة وزوجـة وأم، وقبـل كـل ذلـك كـامرأة لهـا شخـصية ودور في المجتمـع يجـب أن تُؤدِّيـه علـى أكمـل وجـه!!. لقـد كنت أشعر أني عالة على أسرتي، فلطالما سمعت أبي و أمي و أخوتي الذّكور يقولـون: غـداً سـوف تتزوجين ويقـل مـصروف البيـت ونـستفيد مـن المـساحة الـتي تـشغلينها. وأحيانـاً يقولـون غـداً نرتـاح منـك ومـن أخوتك البنات. كل ذلك وغيره كان يترك في نفسي انطباعـات حزينـة وجروحاً عميقـة وندوباً غـائرة لم تندمل حتى اليوم، أقلهـا شُعُوري بأني مرفوضـة مـن أسـرتي بـل مـن المجتمـع كله ولكـن كمـا يقولـون: المرأة شـر لابُدَّ منه لاستمرار الحياة، ورفد المجتمع بالذّكور، وحصولهم على المتعة والخدمـة المجانيـة!.... وتابعـت دراسـتي ضـمن هـذه الأجـواء المـشحونة بـالكره والبغـضاء لـيس حُبـاً في الدّراسـة، وإنّمـا كمـا قلـت لـك سـابقاً: لأنها متنفسي الوحيد. ووضعي النّفسي انعكس على تحصيلي العلمي فتراجـع مـستواي الدراسـي وتـردت نتـائجي ومـع ذلـك حافظـت علـى الدّوام في المدرسة بصُورة منتظمة، وكنت أتبادل الأحاديث مع زميلاتي في هـذه المواضيع الـشائكة، فلاحظـت أنّهـن يكابـدن نفـس المـشكلات مع اختلاف يسير نتيجة اختلاف مستوى الأسر اجتماعياً واقتصادياً وثقافياً.

واستمرت حيـاتي علـى هـذا النّمط الكئيـب الحـزين إلى أن وصـلت إلى الـشّهادة الثّانويـة وتجاوزتهـا بـصُعُوبة شـديدة فـأجواء المدرسـة كمـا ذكـرت سـابقاً تـشبه المعتقـل، والمعلمـات أشـبه بـسجانات، فـالعنف

والإذلال والقهر يمارس علينا، فلم أشعر بالسّرور أو الرّاحة لا في البيت ولا في المدرسة، كنت أحمل حزني وكآبتي أينما ذهبت، وأبحث عن مساحة نور في محيط من الظلمات فلا أظفر بشروى نقير، وتفاقمت هذه الأمور في نفسي، وراودتني فكرة الفرار، ولكن سرعان ما أتراجع لأن ذلك انتقال من شر إلى شر أشد منه. أين أذهب؟ إلى مجتمع مليء بالأفاعي والعقارب ينتظر ضحية لينهش جسدها ويفترسها! فقبلت بوضعي مكرهة غير راضية وأنا أجتر ألما يقهر نفسي.

حِزتُ الشّهادة الثّانوية بدرجات متوسطة، وعارض أهلي بشدة دُخُولي إلى الجامعة، وقالوا: إلى هذا المستوى وكفى، ينبغي عليك أن تستعدي للزّواج وتتعلمي الطّبخ، وما يلزم لإدارة البيت. عارضت رأي أهلي وتشاجرنا وصفعني أبي على وجهي، وخرج الدّم من فمي وسال على عنقي، فسحبتني أمي إلى الصنبور وغسلت فمي. مضت أيام، وأيام، وأنا أرجو أمي أن تقنع أبي بضرورة دُخُولي إلى الجامعة، وفعلاً بعد معاناة شديدة رضي، واشترط ألا أداوم في الجامعة، فسجلت بكُلّيَّة الآداب قسم اللُّغة العربية، وقلت في نفسي لا بأس أدرس وحدي وأستعين بزميلاتي فأستعير منهن المحاضرات. وصارعت مشقات لا تحصى، تضعف حيناً وتشتد أحياناً . وخاصَّة إذا تَدَخَّل أخوتي الذّكور وطلبوا من أبي منعي من الذّهاب إلى الجامعة لجلب

المحاضرات، وهكذا استمر الوضع المشين من عام إلى آخر لا تخبو شعلة أحداثه السوداء أبداً.

هذه الأحداث هي أهم ما جرى معي في العقد الثاني من عمري!

الطّبيب: أحسنت يا سعاد، لقد سردت وقائع حياتك بأسلوب مشوق مؤثر ، وقد سجلت كل ما قلته، وسأعكف على تحليله بأناة وسنلتقي في الجلسة الثالثة في الموعد المحدد.

وخرجت أمل وسعاد من عيادة الطّبيب، وحاولت سعاد استمزاج رأي أمل في تقويم سُلُوكها لتبرر ما حصل معها. ولكن أمل كانت حذرة جدَّاً فقد طلب منها الدّكتور ألا تُقَوِّم سُلُوك سعاد، وألا تجاريها في لعبتها الحوارية النّفسية التّبريرية، وأمرها أن تكتفي بالإصغاء فقط وترديد كلمات غامضة مثل: رُبَّما و ممكن أو الأمر بحاجة إلى تفكير، المهم ألا تخرج سعاد بنتيجة تشعر من خلالها أن سُلُوكها صحيح أو مبرر أو هو حتمي الحصول، وكل ذلك ينبع من حرص الطبيب أن تبقى سعاد في حالة التّفكير والتّدبر حتَّى تحاول تحليل ما حدث معها بصُورة موضوعية ومنطقية.

أمل:ما رأيك يا سعاد لو نتوقف قليلاً ونتناول آيس كريم بالشّوكولا؟

سعاد: أوه! فكرة حسنة لقد تعبت، وأريد أن أخرج من الماضي الذي يلاحقني ويسكن في نفسي.

أمل: الأمر بيدك تستطيعين أن تُخرجي الماضي من نفسك ليدخل الحاضر عوضاً عنه.

سعاد: هل الأمر بهذه السّهولة؟

أمل: صعب ولكنه ليس مستحيلاً.

سعاد: وكيف أفعل ذلك؟.

أمل: ولماذا تذهبين إذاً إلى الطّبيب؟ أليس ليساعدك ويعلمك كيف تفعلين ذلك؟

سعاد: ولكن إلى الآن لم يقل لي شيئاً؟

أمل: وما أدراك أنَّه لم يقل لك شيئاً.

سعاد: كيف ذلك ألست أنا من أذهب إليه.

أمل: هناك أساليب كثيرة لتوصيل الأفكار، ولا تقتصر على الكلام المباشر، ومنها أن يجعلك تقولين فكرته بلسانك، لأنَّ المعالجة والعناية بالإنسان نفسياً لا تكون من خلال إملاء الأوامر، بل لابُدَّ من القناعة الذّاتية وقَبُول الفكرة كما قال الطبيب، وعندئذ تدخل الفكرة إلى أعماق المريض وتفعل فعلها مثل حبة الدّواء التي يبتلعها الإنسان، فلا يكفي أن يحملها في يده ويعرف مواصفاتها، بل لابُدَّ من ابتلاعها لتصل إلى الجراثيم أولاً لتقضي عليها ثانياً، وأنت تعرفين أنَّ الدّواء لابد له من جرعة معينة وضمن وقت محدد، فلا يكفي حبة واحدة للقضاء على المرض، فعامل الكم والكيف والوقت لابُدَّ منه لمعالجة المريض حتَّى يشفى، وكذلك الأفكار السّلبية القابعة في النّفس

لابُدَّ لها من كم وكيف ووقت ليتم امتلاخ جذورها من ثرى النّفس، والأمر يستحق العناء والجهد والصّبر.

سعاد: إذاً؛ أنا بدأت بالعلاج ولم أشعر؟..

أمل: نعم ومنذ وقت طويل.

سعاد: لقد لاحظت أن بصيصاً من نور يتلألأ في سماء نفسي بين فترة وأخرى، وأشعر بالسّرور أحياناً، وخاصَّة عندما أمارس عملية التّفكير، وأقوم بتحليل الأحداث وربطها بنتائجها بصُورة أفضل ممَّا كنت أفعل سابقاً، وأشعر أحياناً أنَّ الحياة جميلة بحد ذاتها، وأتذكر الحوار الذي جرى بيننا عن البحيرة والبط، وصرت أعلم أن مفهوم الشّر والقبح ليس لهما وُجُود موضوعي، وإنَّما هما من صنع الإنسان، لأنَّ الواقع هو خير وجمال ولوحة كبيرة منسجمة مع بعضها بتكامل مذهل، فأشعر بموجة من السعادة الدافئة تغمر نفسي فأنا مخلوقة جميلة ضمن هذه اللّوحة العظيمة، بل أنا أهم عنصر فيها لأنني أقوم باستخدام العناصر الأخرى الموجودة في اللّوحة، وأملك حُرِّيَّة الحركة والوعي لهذه الأحداث، بل أستطيع أن أغير مجرى الأحداث من خلال تدخلي في حركة العناصر الموجودة في اللّوحة!

أمل: أوه! عظيم لقد جرت الحكمة على لسانك دون أن تشعري بها وصرت أيضاً رسَّامة!.

سعاد: لم أشعر بنفسي كما أشعر الآن، فأنا لست ناقصة عقل أودين، لأني أدركت أنَّ الأفكار لا جنس لها، فلا يُوجد أفكار أنثى

وأخرى ذكر، فالأفكار نتيجة عمل التّفكير، وكل من يمارس التّفكير يصل إلى ما وصلت إليه، ويشعر بما شعرت به، إنَّه شُعُور أعجز عن اختيار الكلمات لتحمله، ولكن أقول إنَّه شُعُور عظيم، شُعُور بالوُجُود الواعي المحترم للإنسان الحر.

أمل: إنك تستحقين قبلة مني وتصفيقاً حاداً إني أسمع منك ما لم أسمعه من أحد قبلك. هل التّفكير والتّأمل بالأحداث والاندماج باللّوحة الكبيرة كعنصر من عناصرها يوصل الإنسان إلى هذه المرحلة والشُّعُور بالسّعادة؟ هذا شيء أشبه بالسّحر إنَّه لأمر عجيب لم أكن أستحضر هذه الأبعاد والدّلالات عندما كنت أستعرض معك هذه الأفكار لأن معظمها كان نقلاً وحفظاً .وأنا شاكرة لك يا سعاد على ما جعلتني أراه وأشعر به.

سعاد: كفاك مجاملة ومبالغة يا أمل فأنت تعلمين الوضع الذي أنا فيه.

أمل: نعم أعرف، ولكن من قال لك أنَّ الإنسان لا يستطيع أن يخرج ممَّا وضع نفسه فيه؟! ألا تعلمين أن قوانين النّفس غير الجسد، فمن الممكن أن يأتي أحد، ويقيد جسدك فلا تستطيعين التّخلص من القيد، أما النّفس فلا يمكن لأي إنسان أن يقيدها لأن قيودها ذاتية وداخلية، فالإنسان ذاته هو الذي يضع قيوداً على نفسه، وهو الوحيد الذي يستطيع أن ينزعها.

وافترقت الصديقتان، وذهبت كل منهما بحال سبيلها، ومضت أيام وحان موعد الطّبيب، ومضت الصديقتان معا ورغبة التحدي تسم قلبيهما الشابين بميسم الحماس الكبير.

الزيارة الثالثة للطبيب

خرج صوت سعاد كالتغريد من صدرها: مساء الخير والورد والعطر يا دكتور.

الطّبيب: مساء الخير يا سعاد إنها تحية لم أسمعها منك سابقاً،وهذا يدل على حالة التّفاؤل والسّرور في نفسك.

سعاد: أرجو أن أكون كذلك.

الطّبيب: إن الأمر بيدك، فالسّرور والحزن مفهومان يمكن ضبطهما، ألا ترين أنَّ الإنسان إذا قمت بإخباره بحدث سيئ يشعر بالحزن والهم، وإذا قلت له أنك تمزحين معه ينقلب شُعُوره مُباشرة من الحزن إلى الضّحك والسّرور. فالإنسان يكيف سُلُوكه حسب المفاهيم التي يحملها. فالسّرور والحزن ليس لهما وُجُود موضوعي، وإنَّما وُجُودهما نفسي نتيجة تفاعل الإنسان مع الأحداث، فهما يتحركان من الدّاخل إلى الخارج، وليس من الخارج إلى الدّاخل، فلا يستطيع إنسان أن يجعلك مسرورة أو حزينة، لأن هذه الأمور هي صفة فعل للنّفس. والنّفس تحكمها المفاهيم التي يحملها الإنسان، ويحصل عليها نتيجة تفكير وتدبر، فتصير بالنّسبة إليه ثقافة. أما الإنسان الذي يفتح بوابة

نفسه، ويسمح للآخرين أن يضعوا ما يشاؤون فيها، حتى إذا عبثوا به وانفعالاته وأفكاره، فهو إنسان فاقد للشّخصية وتصير نفسه أشبه بحاوية للقمامة يرمي النّاس فيها قاذوراتهم!. وينبغي على الإنسان العاقل أن يُغلق بوابة نفسه، ولا يسمح لأحد أن يدخل شيئاً إليها إلاَّ بعد الاستئذان، وذلك يتحقق بمرور الفكرة على التّفتيش تحليلاً وتركيباً وربطاً بالنّتائج، وما مدى موافقتها للواقع، وبعد ذلك يتم الحكم إما بدُخُول الفكرة للنّفس واتِّخاذ الموقف السّليم من ذلك، أو عدم السّماح بدُخُول الفكرة وطردها خارجاً. فنحن يا سعاد الذين نسمح للآخرين بأن يُزعجونا أو يُغضبونا، ونحن الذين نُعطي للأشياء معناها، ومعرفة ذلك تُمَكّنُ الإنسان من السّيطرة على ردة أفعاله، وتوجيهها بصُورة إيجابية منبثقة من مفاهيمه، وليس كردة فعل انفعالية لأن ذلك لو حصل لصار الإنسان تحت سيطرة الآخر، متى شاء أغضبه، ومتى شاء أحزنه، ويصير ألعوبة في يد الآخرين، يتحكمون بانفعالاته وسُلُوكه.

وعلى كل لحديثي تتمة أما الآن فيشوقني حقاً أن تتابعي سرد وقائع العقد الثالث من حياتك فتفضلي؟.

سعاد: إن السنوات العشر الأخيرة هي امتداد طبيعي لما سبق سوى أنَّ المشاكل والأزمات تكبر مع الزّمن بعامل التّراكم ما يجعلها مزمنة مستعصية، وتتولد منها مشاكل أخرى في النّفس تظهر بصُور مختلفة، وأهم ما عرض لي من أحداث في هذه الفترة وكان له التّأثير

الأكبر هو موضوع الزّواج. فقد تقدم لخطبتي شباب لم يحصلوا من التّعليم سوى المراحل الأولى، وكنت أنا على مقاعد الدراسة الجامعية فرفضتهم جميعا، للفرق العلمي الكبير بيننا، وهذا الرّفض المتكرر أثار عواصف عائلية هبت ضدي، فسمّم أخوتي الذّكور مسامعي بقولهم صباح مساء: سنرى أين سوف توصلك الدراسة . أو قولهم: سوف تصلين إلى سن اليأس والعجز ولن يتزوجك أحد. أو قولهم: سوف تصيرين عوضاً عن الآنسة سعاد. العانسة سعاد!. أو قولهم: هل تظنين أنَّ العلم يجعلك إنسانة ذكية ذات قيمة، ما أنت سوى امرأة نهايتك معروفة في المطبخ بين الطّناجر والصّحون، فلماذا ترفضين الزّواج!. وجاء كلام أمي وجدتي وغيرهم من النّساء ضغثاً على إبالة: ظل رجل ولا ظل حائط. وقولهم: المرأة دون رجل لا تساوي شيئاً. وغير ذلك من الأقاويل الانهزامية التي أسمعها على مدار الساعة، وتزداد كلما تقدم أحد لخطبتي. وكنت أستغرب من ظاهرة عجيبة وهي إقدام الشّباب المتعلمين على خطبة النّساء المتدنيات في المستوى العلمي، وخاصة اللّواتي حصلن على التّعليم الإلزامي فقط، مقابل إقدام الشّباب المهنيين أو أنصاف المتعلمين على خطبة النّساء اللواتي بلغن المستوى الجامعي، فانظر إلى هذه المفارقة الاجتماعية، ولا أعلم لها سبباً حتَّى ناقشت هذه الظاهرة مع زملاء لي في الجامعة فقالوا: الشّاب الجامعي لا يرغب بفتاة جامعية لأنه يعلم من خلال تجربته الدّراسية أنَّ الفتاة في الجامعة تكون قد تفتحت على الدّنيا، وحصلت

على نصيب من العلم، وصار لها رأي وقول وفهم، ما يجعلها رأساً في البيت تضعه مقابل رأس زوجها، تناقشه وتخالفه، لذلك يرغب المتعلم بفتاة عادية مغفلة لم تنل من العلم سوى المرحلة الإلزامية، أو أكثر قليلاً، فإذا تكلم معها سمعت وأطاعت وإذا قال لها: اللّبن أسود. قالت: كما تريد. ويصير الزّوج سيداً لها وهي أَمته وجاريته تقوم بخدمته وخدمة أولاده. وبمعنى آخر التّعليم الجامعي عند الشّباب لم يغير ثقافتهم الجاهلية التي ورثوها عن المجتمع الذكوري!

وعلى الجانب الآخر تشخص ظاهرة الشّباب الذين اكتفوا بمرحلة علمية متوسطة، ومع ذلك يقدمون على خطبة النّساء الجامعيات، فيمكن تبريرها واقتفاء أسبابها، وهي متعلقة بنفسية الشّباب، فهؤلاء الشّباب يشعرون بالنّقص والقُصُور في شخصيتهم، فيحاولون سد هذا النّقص بخطبة المرأة الجامعية ليثبتوا للمجتمع أنَّه لولا عظمتهم وفهمهم لما رضيت بهم المرأة الجامعية، وهم بالتالي أعظم شأناً ممن يحملون شهادات جامعية، إضافة إلى أنهم حصلوا على مدرسة تعلم أولادهم مجاناً، وهؤلاء ويا للأسف يتعاملون مع النّساء بأسلوب سادي لأنهم يستمدون شخصيتهم من إذلال واحتقار المرأة والسّخرية منها!!.

لم يتقدم لخطبتي شاب يحمل مؤهلاً علمياً يوازي مستواي العلمي وأنا لا أقبل بالشّباب أنصاف المتعلمين، وكان الزّمن يسابقني ليخلق مشكلة أخرى كبيرة، وهي تقدم العمر الذي يخالف طبعاً مواصفات الزّواج المعمول بها في المجتمع الذكوري، وهكذا بين رفض من لا أريد

وعدم تقدم من أريد ضاعت سنوات ثمينة وكبرت قليلاً فلم أعد مرغوبة من الصّنفين: من الشّباب المتعلمين وأنصاف المتعلمين. لأنهم يفضلون سن العشرين ومادون ذلك حتَّى تحتفظ الفتاة بقوتها وجمالها أطول فترة ممكنة ليشبع الذّكور نزواتهم بجسدها الريان، وتقوم على خدمتهم، فهم في الحقيقة لا يريدون زوجة حبيبة، وإنَّما يريدون أمَة جارية، وما مضمون عقد النّكاح من حيث الصّلاحيات التي يعطيها المجتمع للذّكور سوى نفس مضمون عقد بيع الإماء، فالمرأة في مجتمعاتنا تباع وتشترى بعقود زواج فتنتقل ملكيتها من أبيها إلى زوجها!...

واستمر وضعي على هذا النّمط الضنك من الحياة حتَّى تخرجت من الجامعة، وازداد ضغط أهلي علي، وكثر الكلام السّيئ وفقدت قدرتي على الاحتمال فقررت أن أبحث عن عمل أمارسه لأخرج من البيت أكثر وقت ممكن، وأخفف عن أسرتي مصروفي الشخصي، وأقدم ما يفيض عن حاجتي عسى أن يعدوني فاعلة مشاركة في مصروف البيت، فأنال قسطاً صغيراً من الاحترام وفعلاً عرضت هذه الفكرة على أفراد الأسرة فغضبوا غضباً شديداً وأزبدوا وأربدوا، فقلت لهم هو مجرد اقتراح مالكم انفجرتم في وجهي؟ ولماذا هذا الموقف العدائي؟ قالوا: أتعلمين ماذا يعني أن تعملي في وظيفة؟ قلت: وماذا يعني ذلك.؟! قالوا: يعني ذلك أنك لن تتزوجي أبداً، فمن يأخذ امرأة جامعية تجاوزت الخامسة والعشرين من عمرها وموظفة تخرج كل يوم

وتختلط بالرّجال، وصار لها راتب شهري يعطيها القوة والاستقلال الاقتصادي عن الرّجل، فماذا أبقيت للرّجل حتَّى يقودك فهو في غنى عن جلب رجل لبيته، إنَّه بحاجة إلى امرأة يفرض عليها رجولته.

فزال العجب من نفسي وعلمت سبب هذه الثّورة، إنها الثّقافة الذّكورية المزروعة في ثقافة المجتمع كفيروس وبائي قاتل!.

مضت أشهر وأنا قابعة في البيت أعاني الوحدة والبطالة إضافة إلى السّخرية والازدراء من ذكور أسرتي وتعييري بدراستي قائلين: هل رأيت بعينيك ماذا فعلت بك الدّراسة والجامعة؟ فتحملي نتيجة ذنبك!

لقد أشعروني أنَّ الدّراسة والعلم جريمة بحق الفتاة والأسرة، فكيف يقول النّاس: العلم نور، والعلم يرفع بيوتاً لا عماد لها!؟ لقد خرب العلم بيتي ونفسي!..الغريب أن اليأس نفح بي طاقة جبارة فلم يعد عندي ما أخسره وواظبت على طلب حقي بالعمل لأخرج من هذا الجو الموبوء المريض وصرت كل يوم أخلق مشكلة حتَّى ضجر أهلي واستجابوا أخيراً لرغبتي ليتخلصوا مني ومن مشاكلي، فتوظفت في شركة إنتاج للملابس وداومت بضعة أشهر تعرفت خلالها على مستخدم عندنا يُكَنّى بأبي زيد أشاهده أكثر من مشاهدتي لأبي، أتكلم معه أكثر من كلامي مع أخوتي، ومع استمرار الضّغط الاجتماعي والعائلي على نفسي بدأت أفقد توازني ومحاكمتي للأمور، ووقفت على حافة الانهيار النّفسي، فموضوع الزّواج مازال هاجس أسرتي. يؤرقني ويقض مضجعي: لماذا لم تتزوجي إلى الآن؟ وإلى متى

سوف تبقين هكذا؟ لقد صمّوا أذني فما رأيت نفسي إلا وأنا ألاطف أبا زيد، فبادلني ذلك وتطور الأمر، وعرضت عليه الزّواج فاستغرب ذلك مني، وأخبرني أنَّه متزوج وعنده أولاد، فقلت له:لا يُوجد عندي مانع من ذلك فالشّرع قد أحلَّ للرّجل التّعدد في الزّواج، فذكر لي العائق المالي، وعدم قدرته على إعالة أسرتين، وأن عليه ديوناً وما شابه ذلك من مصائب ومشاكل، غير مستواه الوظيفي والعلمي، فقلت له: لا يُوجد أي مشكلة، فأنا أتكفل بنفسي وأسرتي وأستأجر بيتاً. المهم أني ذللت له كل المصاعب لأني لم أعد أحتمل ضغط أهلي والمجتمع فصار اسمي: العانس سعاد!. فأردت أن أخرج من هذا المستنقع وبالوقت ذاته أردت أن أعاقب أسرتي والمجتمع بزواجي هذا، ألا تريدون أن أتزوج؟ ها هو زوجي انظروا إلى مثلكم: ظل رجل ولا ظل حائط!؟.

وأطلعت سعاد الطّبيب على تفاصيل قصة زواجها، وما جرى معها إلى أن طلقت، ورجعت إلى بيت أهلها، ومعها ذكرى رجل وطفلة بريئة كانت ثمرة هذا الانتقام فجاءت إلى الدّنيا يتيمة سلفاً.

سعاد: هذه قصتي كاملة خلال ثلاثة عقود من الزّمن ملخصها كما قال أبي: ***(أرحام تدفع، وأرض تبلع، وما بعد الفقر إلا المجرفة والقبر)!***......

فكر الطّبيب ثم قال بهدوء: في الدّرجة الأولى مشكلتك مشكلة اجتماعية لأنَّ الإنسان كائن اجتماعي، فالمجتمع هو الذي يصنع

شخصية الفرد، وبالتّالي لابُدَّ من رفع مستوى المجتمع وتغيير الثّقافة الجاهلية الذّكرية التي تحكمه، وهذا العمل أكبر من جهود الفرد، ويلزم له عمل مُؤسَّساتي على الأصعدة كافة، يعمل على تغيير مفاهيم المجتمع السّامة، ويرتفع به إلى مستوى المجتمع الإنساني الرّاقي.

وعلاقة الفرد بالمجتمع ليست كعلاقة السّن بالمسنن، يدور معه بصُورة حتمية آلية لا يملك أي قرار أو خيار، فالإنسان صاحب إرادة ووعي وإدراك، وعلاقته بالمجتمع علاقة واعية، يستطيع أن يدور عكس المجتمع أو معه، ولو كان الأمر صعبا،فالإنسان عندما يبلغ سن الرشد يصير ابن مفاهيمه وأفكاره ويستطيع أن يعدل أو يغير ما حقنته البيئة فيه سابقاً، ومن هذا الوجه قيل: **إن الإنسان ابن بيئته صغيراً، وابن أفكاره ومفاهيمه كبيراً، فلا عذر له أبداً**.

صديقتي سعاد: إن وُجُود الإنسان إنَّما هو وُجُوده الواعي الحر، بصرف النّظر عن صفات الجسم من قوة أو ضعف، جمال أو قبح، فالإنسان نفس وجسم، والعلاقة بينهما كعلاقة الفارس بالفرس، فالنّفس هي الفارس، والجسم هو الفرس. فتقوم النّفس بقيادة الجسم، فيمكن أن تهلكه وتستخدمه في أقل وقت، ويمكن أن تحافظ عليه وتُطيل صلاحيته، وإذا أصيب الجسم إصابة بليغة أدَّت إلى عجزه مع بقاء الدّماغ سليماً في وظائفه تستطيع النّفس أن تكون فاعلة من خلال قيادة الدّماغ فقط، وخاصَّة في زماننا هذا مع وُجُود التّقنيات الحديثة، التي تعوض عن حركة الإنسان، ولعلكِ سمعت قصصاً كثيرة

تدل على ما ذكرت، ومن أشهرها ما عرضهُ التّلفزيون السّوري عن شاب أصيب بحادث أدى إلى شلل جميع الأجهزة الحركية، ولم يبق منه سليماً إلاَّ رأسه، ولكن لا يستطيع تحريكه يمنة ويسرة، وإنَّما يحرك عينيه ولسانه فقط، وهو دائما في حالة استلقاء على ظهره، ومع كل ذلك لم يمنعه العجز الجسمي عن التّواصل الإيجابي مع الحياة، فتابع دراسته في هندسة الكومبيوتر، وصار مهندساً، وساعده أصدقاؤه في اختراع (ماوس) يستطيع تحريكها بلسانه وهو مستلق على ظهره، ووضعوا شاشة الكومبيوتر ضمن مستوى نظره، وأبدعوا برامج يستطيع بواسطتها أن يتحكم بالكومبيوتر، ويفعل ما يريد من خلال حركة (الماوس)، وهو الآن يعمل مهندساً في إحدى شركات البرمجة، وهو على سريره في بيته جسداً ولكنه نفساً يدور ويجوب العالم كله بواسطة الانترنيت!. فهذا الإنسان العظيم أفضل من عشرات بل من مئات النّاس الذين يملكون أجساماً قوية وعضلات مفتولة ويتحركون بكامل حريتهم، ولكنهم عجزة! لأنهم عطلوا المقدرة العقلية، واعتمدوا على حركة الجسم، فصار مثلهم كمثل الفارس الميت على فرسه، يتحرك الفرس بصُورة عشوائية حسب ما تملي عليه غرائزه، فصار الوُجُود للفرس وليس للفارس. أي للجسم وليس للنّفس. وأمثال هذه القصص في المجتمعات الإنسانية كثيرة، ويجب على الإنسان أن يطلع على مجموعة منها ليعتبر بها، ويعرف قيمة نفسه وقيمة ما يملك من النِّعَم و مدى القوة الكامنة في نفسه، وكم هي عظيمة وجبارة.

وانظري يا سعاد إلى قول الشاعر:

انهض بنفسك واستكمل فضائلها.. فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

ولقد صدر في الآونة الأخيرة كتاب بعنوان: (العجز المكتسب). للدّكتور مطاع بركات. جدير بالقراءة فاحرصي على قراءته.وهناك في المكتبات كتاب بعنوان (دع القلق وابدأ الحياة) لدابيل كارنيجي وغيرهم هل اطلعت عليهم أو على غيرهم ؟

ردت سعاد بخجل: لا! لم أطلع على أي منهم.

الطّبيب: ينبغي أن تقرئي أمثال هذه الكتب والأبحاث، فهي جديرة بالقراءة، فأي كتاب يساعدك على استرجاع الفاعلية لحياتك فعليك به، نحو كتاب (العادات السّبع) لستيفن كوفي، ومؤلفات الدّكتور: إبراهيم الفقي، وغيره من الباحثين في مجال تزكية النّفس وتفعيلها والرّقي بها إلى تحقيق الفاعلية والتّوازن فهي كتب سهلة القراءة.

صديقتي سعاد إن القراءة شيء هام جدًّاً في حياة الإنسان، والقراءة لا تقف عند حدود تلاوة المخطوط، فهي عملية أكبر من ذلك بكثير، إنها تعني التّدبر والتّعقل والتّأمل والتّحليل والتّركيب والرّبط بين الأفكار، فيمكن أن يقرأ الإنسان بواسطة السّمع والبصر، نحو حضور المحاضرات العلمية والثّقافية ومشاهدة البرامج الاجتماعية والحوار مع النّاس، وغير ذلك من الأمور. وأنتِ تعلمين أن أول أمر إلهي أنزله الله للنّاس في القرآن هو{اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ }العلق1

توجيه من الخالق العظيم لفعل ينفع النّاس وينهض بهم على صعيد الفرد والأسرة والمجتمع وذلك من باب {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ }الملك14 وهذا الأمر الإلهي مهمل من قبل المجتمعات، وخاصَّة المجتمعات الإسلامية، فهي أبعد النّاس عن فعل القراءة بالمعنى الذي ذكرته، الذي هو التّفكير والتّدبر والتّأمل والدّراسة سواء أكان ذلك مرافقا لفعل التلاوة أم لا!.

صديقتي سعاد! إن القيود الاجتماعية والثقافية ذو وجهين:

الأول:**قيود عناية** يكون الدافع لها الحماية للمرأة، أو البنت من ظلم المجتمع، وأذاه، وجاهليته، وهذه القيود ليست لنفي الثقة عن المرأة أو البنت، وإنما لنفي الثقة عن المجتمع، وذلك مثل دخول المرأة إلى الغابة، فالثقة موجودة بالمرأة، ولكن غير موجودة بالغابة!، وهذا يؤدي إلى وضع القيود الإيجابية لحماية المرأة، والعناية بها.

الثاني: **قيود رعاية** يكون الدافع لها مفهوم التسلط والذكورة ورأي المجتمع الجاهلي، وهذه القيود قائمة على نفي الثقة عن المرأة أو البنت، وهي موجهة إلى ما يراه الذَّكر مصلحة له، وخشية نظرة المجتمع الجاهلي إليه.

ومفهوم العناية متعلق بالإنسان، ومفهوم الرعاية متعلق بالبهائم، فينبغي أن تُفرقي بين المفهومين لتستطيعي أن تُفرقي بين نَوعي القيود، لأن القيود الاجتماعية الإيجابية شيء لابُد منه لحماية المرأة، وهذا لايُنقص من قيمتها أبداً، أو يَحدُّ من حريتها، لأن الحرية مسؤولية

ووعي، كما أن للرجل قيوداً يلتزم بها طوعاً للحفاظ على سلامته، مثل نظام المرور وغيره.

صديقتي سعاد: إن الوقت قد انتهى فإلى الموعد القادم ولكن عندي طلب أريد أن تنفذيه فهل أنت مستعدة؟

سعاد: طبعاً أنا مستعدة أليس هذا لمصلحتي.

الطّبيب: حسن أريد منك أن تزوري المستشفى الحُكُومي وخذي معك صديقتك أمل، وادخلي جناح الأمراض الجلدية وانظري إلى المرضى، ومن ثم ادخلي إلى جناح الأطراف الصّناعية وانظري إلى المرضى، وهكذا إلى أن تنهي زيارة الأقسام كلها، وبعد ذلك اذهبي إلى المقبرة وانظري إلى ساكنيها وتأملي حالهم، ثم اذهبي إلى حديقة عامَّة، واجلسي بين الأشجار، وقومي بقراءة ما شاهدت من أحداث وصُور، ورتبي أفكارك وصنفيها؟ ومن ثم قومي بقراءة نفسك، وما جرى معك، وأيضاً رتبي أفكارك وصنفيها ويكون قد حان موعد جلستنا فاسمع منك ما وصلت إليه.

فقامت سعاد وأمل على الفور وودّعتا الطبيب وانصرفتا .

زيارة المشفى الوطني

ولما كان المشفى قريباً والوقت يسمح قالت سعاد فجأة: أمل! ما رأيك أن نذهب الآن إلى المشفى الوطني لزيارته؟

أمل: لا مانع لدي.

وانطلقتا حتَّى وصلتا إلى المشفى فدخلتا إلى قسم الأمراض الجلدية وشاهدتا من الأهوال ما يشيب له الولدان فقالت سعاد: يا اللهّ؟! الحمد لله على الصّحة والعافية، كان الله في عونهم يا لطيف .يا لطيف . الله يعافينا ويعافيهم.

وانتقلتا إلى قسم الأطراف الصّناعية ودخلتا إليه.وتكررت المشاهد المؤلمة فقالت سعاد: سبحان الله ما هذا؟ أقدام ومفاصل صناعية، أمل انظري لهذا الرّجل ليس له قدمان وهو يبتسم تعالي لنسلم عليه.

واقتربت الصديقتان من الرجل وقالتا بصوت واحد: مرحباً يا عم! الله يعطيك العافية ويمدك بالقوة.

الرّجل: أهلاً بكما! وعافاكما الله ومتعكما بشبابكما وصحتكما.

سعاد: كيف حالك يا عم هل أنت بخير ومسرور؟

الرّجل: أوه!!.. نعم الحمد لله! صحيح فقدت القدمين ولكن عندي يدين ولساناً وشفتين وأسمع وأبصر، وأهم من كل ذلك أستطيع أن أفكر. فَنِعِمُ الله لا تُعَد ولا تحصى علينا، وإذا أخذ منَّا شيئاً فقد ترك لنا أشياء كثيرة، والإنسان العاقل لا يتعلق بما ذهب

منه، وإنَّما يتعلق بما بقي له ويملكه، فيقوم باستخدامه ويتابع حياته بصُورة طبيعية مثله مثل سائر النّاس.

سعاد: شكراً يا عم! وأطال الله عمرك.

وانتقلتا من قسم إلى آخر، وهما في حالة ذهول ووجوم ممَّا رأتا من حالات مرضية.

فقالت سعاد: كفى يا أمل أريد أن أخرج من المشفى...

أمل: هيا نذهب.

وانطلقتا وهما صامتتان مستسلمتان لتأملاتهما فيما رأتا من صُور الحياة.

وفي اليوم الثّاني اتَّصلت سعاد بأمل وطلبت منها الذّهاب معها لزيارة المقبرة.فاستجابت أمل لمعرفتها أن زيارة هذا المكان الموحش جزء من علاج صديقتها العزيزة .

سعاد: مرحباً أمل كيف حالك؟

أمل: أهلاً بك يا سعاد أنا بخير والحمد لله. وأنت كيف حالك؟

سعاد: الحمد لله أنا بخير وأشعر بقوة في جسمي ونفسي لم تكن موجودة سابقاً.

أمل: هيا نذهب إلى زيارة المقبرة.

ودخلتا إلى المقبرة، وشاهدتا آلاف الشّواهد قائمة تشهد على من تحتها من مختلف طبقات النّاس: الأغنياء والفقراء، الأصحاء والمرضى،

الكبار والصّغار، العظماء والمغفلون، الصّالحون والطّالحون، الرّجال والنّساء...

سعاد: من يتصور أن تحت هذه القبب والشّواهد أناس كانوا قبل فترة يمشون على الأرض، ويتشاجرون على أشياء ليست لهم.وآلت في النهاية إلى غيرهم ألا ترين يا أمل ذلك غريباً؟

أمل: الإنسان بطبيعته يحب التّملك فإن لم يوجه ويحكم هذه الطّبيعة بمفاهيم إيجابية يقوم بالاعتداء على الآخرين وملكيتهم ويأخذ ما ليس من حقه.

سعاد: إذا متنا نحن سوف يضعوننا تحت التّراب مثل هؤلاء؟

أمل: ألست مثل سائر النّاس؟ هل أنت مختلفة أو زائدة عنهم؟

سعاد: طبعاً لا. أنا مثل النّاس ويجري علي ما يجري على النّاس ولكن أتساءل ليس استنكاراً أو جهلاً!! وإنَّما عجباً وذهولاً لماذا لا يفكر النّاس بهذه النّهاية وهي تشخص أمامهم عبر آلاف الشّواهد؟وليس منهم إلا من مات له قريب وحضر دفنه في التّراب!؟

أمل: الإنسان سرعان ما ينسى وتغره الحياة الدّنيا بزخرفها.

سعاد: لماذا سَمَّوا حياتنا بالحياة الدّنيا؟

أمل: هل تعلمين أنني لم أفكر بذلك من قبل، ولكن أظن أن ذلك من منطلق وُجُود الحياة الآخرة الأعلى والأبقى من هذه. أوه! يا سعاد، هل تعلمين أن اسم الحياة الدّنيا بحد ذاته هو دليل على وُجُود

الحياة الآخرة؟ وإلاَّ لماذا أطلق عليها صفة الدّنيا إذا لم تكن صفة الأعلى موجودة وهي الحياة الآخرة.

سعاد: هذا جميل، وأنا لم يخطر في بالي ذلك من قبل. إن الحوار مع الأصدقاء والنّاس يُظْهِرُ لنا كثيراً ممَّا كان غائباً عنا.

أمل: نعم، لقد صرت أحب الحوار مع الأصدقاء، وأحب أن أقوم بعملية التّفكير وقراءة الأحداث فهذا العمل يعطيني قوة نفسية ويمنحني معنى للاستمرار بالحياة السّعيدة.

سعاد: صراحة وأنا كذلك فقد شعرت بقيمة الحياة وجمالها منذ بدأنا نخرج معاً إلى الحديقة، ونمارس الرّياضة ونتحاور، وتصاعد ذلك إلى الآن، ولكن بازدياد جعلني أصاب بذهول ودهشة من الأمر، وأدركت كم فاتني من لحظات السّعادة.

أمل: إن ما أسمعه منك لهو أجمل شيء سمعته في حياتي لقد عادت إليك الحيوية مثل الوردة التي كانت توشك أن تموت فنزل عليها الغيث فاهتزت طرباً وعادت إلى الحياة باسمة ضاحكة!...

سعاد: إن الأفكار الإيجابية مثل الماء تماماً، فكما أنَّ الماء أساس للحياة الجسدية، فالأفكار الإيجابية أساس لحياة النّفس.

أمل: إنك تدهشينني فعلاً عندما تجري على لسانك الحكمة!

سعاد: إنَّما أفصح عمّا أشعر به في نفسي ويختلج في قلبي.

أمل: إن هذه خطوة جيدة نحو الصّلح مع الذّات وفهمها لتحقيق التّوازن والانسجام بين قوى النّفس مع بعضها والجسم.

سعاد: هيا نذهب إلى الحديقة أريد أن أرى الأشجار والورود وبحرة الماء والبط؟

أمل: قبل أن أنسى يوجد محاضرة مساءَ اليومِ في المركز الثقافي بعنوان (الرجال قوامون على النساء) لنفس المحاضر السابق، فما رأيك لو نحضرها معاً ؟

سعاد: لا مانع فمواضيع هذا المحاضر مثيرة وشيقة وعليها إشكالات كثيرة .

أمل: إذاً سنلتقي في ذات المكان أمام المركز .

وتابعتا نزهتهما في الحديقة، ومن ثم انصرفتا كل واحدة منهما في سبيلها على أن يتم اللقاء مساءً .

(الرجال قوامون على النساء)

عند باب المركز التقت أمل بسعاد ودخلتا إلى قاعة المحاضرات وصعد المحاضر إلى المنصة وألقى السلام ورحّب بالحضور وبدأ المحاضرة قائلاً:

أيها السادة والسيدات إن عنوان المحاضرة هو جزء من نص قرآني ينبغي إعادته إلى محله من النص إذا أردنا أن ندرسه بصورة موضوعية، لأن عملية فصله من مكانه في النص،وفهمه بسطحية بناءً على ما هو شائع على ألسنة الناس من استخدام لدلالة الكلمات، مع تأثير المفهوم الذكوري على الثقافة، أدّى إلى القول بقوامة الذكور على الإناث رغم أن النص لا يحتوي على أية كلمة تؤكد ما ذهب إليه المفسرون .

والنص كاملاً هو: {الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء بِمَا فَضَّلَ اللّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللّهُ وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً } (النساء:34)

ومفاتيح دراسة النص هي دلالة كل من كلمة (رجال) وكلمة (نساء) .

رجل: كلمة تدل على تكرار جهد بحركة متواصلة . ومن هذا الوجه أطلقت على عضو السير عند الكائن الحي ذي الأرجل . ونقول

للإنسان إذا كان راكباً ونريد منه النزول: ترجّل . بمعنى النزول والسير على قدميه . وهذا الوصف لا علاقة له بالنوع ذكراً أو أنثى، وإنما ينطبق على كِلا النوعين . وتم استخدام مفهوم الرجل على الذكر البالغ تغليباً وذلك لأنه عادة هو الذي يقوم بالجهد والحركة لتحصيل رزق أسرته، ويطلق على المرأة التي تسعى وتعمل وتكد لتحصيل الرزق كلمة (الرَجُلَة) .

والنص القرآني قد استخدم دلالة كلمة (**الرجل**) بمعنى الوصف (السعي والحركة بجهد) في قوله تعالى:

{وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ }الحج 27

{فَإنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً } البقرة 239

واستخدمها بدلالة **الذكر البالغ** في قوله تعالى:

{إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء } الأعراف 81

{ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاء }البقرة 282

إذاً الأصل في دلالة كلمة (الرجل) هي الوصف والحال وليس النوع، ولتحديد دلالة كلمة (الرجل) بنوع دون الآخر لابد من قرينة في سياق النص أو من محل الخطاب في الواقع .

أما دلالة كلمة (**النساء**) فهي:

نساء: جمع كلمة (نسيء) وهي تدل على التأخر والإضافة قال تعالى: {إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ } التوبة 37

والمقصود في النص هو عملية تأخير أشهر الحرم عن وقتها وإضافتها إلى غير وقتها لإباحة القتال لأنه محرم في أشهر الحرم .

ويقال للمرأة الحامل: نسيء، وللنسوة الحوامل: نِساء . كما في لسان العرب . وذلك لتأخر مجيء الحيض عنهن ومظنة الحمل بهن .

وقد قام العرب القدامى باختيار كلمة (نِساء) جمعاً لكلمة (امرأة) من غير نوعها لتحقق صفة التأخر بالمرأة على صعيد القتال والعمل على تأمين حاجيات الأسرة، ولبقائها خلف الرجال في إدارة شؤون الأسرة والعناية بالأطفال فصارت دلالة كلمة (نِساء) تطلق على كل من يبقى خلف الرجال في ميدان الحياة بغض النظر عن نوعهم، فيمكن أن يكونوا أطفالاً، أو شيوخاً، أو نسوةً أوكل ذلك مجتمعين.

إذاً؛ الأصل في دلالة كلمة (نساء) هي جمع لكلمة (نسيء) التي تدل على التأخر . ولتحديدها بجمع كلمة (امرأة) لابد لها من قرينة في سياق النص أو محل الخطاب من الواقع .

والنص القرآني قد استخدمها بدلالة جمع امرأة في قوله تعالى: {يَا نِسَاء النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاء إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفاً } الأحزاب 32

وبعد معرفة دلالة كل من كلمة (الرجال) وكلمة (النساء) نعود إلى النص المعني بالدراسة، فنلاحظ أن النص قد استخدم كلمة (الرجال والنساء) ولم يستخدم كلمة (الذكور والإناث) ولو استخدمهما لانتهى النقاش، وقلنا: إن مفهوم السلف صواب في أن الذكور قوامون على الإناث ! .

ولكن النص لم يستخدمهما، فلذلك ما ينبغي القول بهذا المفهوم الذكوري إلا بقرينة نقلية أو عقلية .

والنص لا يوجد في سياقه أي قرينة تدل على أن المقصود بكلمة (الرجال والنساء) هو النوع وليس الوصف والحال، وجملة (فالصالحات قانتات حافظات للغيب) هي جملة استئنافية وليست معطوفة على من سبقها . مع العلم أن النص يحتوي على قرينة صريحة في الدلالة على أن كلمة (الرجال) هي وصف وليست نوعاً، والقرينة هي قوله تعالى (بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم) فمقام القوامة مرتبط بصفتين وهما: الفضل والإنفاق، وهاتان الصفتان لا تلدان مع الذكور وإنما هما اكتسابيتان من الواقع الاجتماعي، فكل من يكتسب صفة الفضل والإنفاق يكون رجلَ البيت سواء أكان نوعه ذكراً أم أنثى، فصفة الفضل والإنفاق هما صفتان متحركتان بين الذكور والإناث، لذا؛ نشاهد في الواقع كثيراً من الأُسر تكون المرأة هي صاحبة القوامة بما اتصفت به من الفضل والإنفاق على أسرتها، فالإنسان الذي يحصل عليهما يكون هو صاحب القوامة، ومن الممكن أن يتقاسم الرجل والمرأة هذا المقام، ويصيران رَجُلي البيت من خلال تعاونهما في قيادة وإدارة البيت على الصعيد الخارجي والداخلي . لذا ينبغي استبعاد مفهوم أن القوامة صفة مرتبطة بالذكر لذكوريته فقط، ونشر الوعي الثقافي في المجتمع أن القوامة هي مقام اجتماعي مرتبط بالوعي والمسؤولية، وعملية الإنفاق لا علاقة لها بفضل الذكر على الأنثى خلقاً أبداً، فالجميع أبناء آدم، وآدم من تراب، فالفضل

هو مقام يكتسبه الإنسان بشقيه الذكر والأنثى من خلال التفاعل البيئي والاجتماعي والتحصيل العلمي، فكان من الطبيعي أن يتمتع صاحب هذا المقام بما اكتسب ويكون نصيبه . { لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ } النساء 32

وشكراً لحسنِ إصغائكم.

وناقش المحاضر بعض المسائل التي أثيرت، وأجاب عن بعض الأسئلة، وكالعادة خرج الحضور بقناعات مختلفة، منهم المعارض، والساخط على أفكار المحاضرة لمخالفتها للموروث الذكوري ! ومنهم من أصابته الحيرة واستعجم الأمر عليه وقرر مراجعة ودراسة الأفكار ! . وآخرون أثنوا على أفكار المحاضرة وخاصة بما يتعلق بمفهوم القوامة وتحريره من قبضة الذكور !.

أما سعاد وأمل فقد انصرفتا وهما مذهولتان مما سمعا، وجرى الحوار التالي بينهما:

أمل: هل كنت تتوقعين هذا المضمون للنص القرآني ! ؟

سعاد: بصراحة !! كنت أظن أني سوف أسمع من المحاضر ترسيخاً للمفهوم التراثي كوني قد تعودت أن أسمع ذلك من الرجال عموماً ! عفواً من الذكور حسب مفهوم المحاضر !.

أمل: ألا ترين أن الذكور يقومون باحتكار تفسير ودراسة النص القرآني، ويملون علينا معشر النساء المفاهيم التي يجب أن نعتقد بها، والمفاهيم التي يجب أن نتركها !؟

سعاد: إنه استبداد ذكوري واستعباد يمارس علينا !.

أمل: لابد من ثورة ثقافية واعية تحرر النساء من استبداد الذكور واستبعادهم !.

سعاد: إني أرى أن النساء هن اللواتي يحملن القابلية لهذا الاستعباد الذكوري لهن من خلال اعتقادهن بصواب مفهوم القوامة الذكوري، وصواب الحديث الذي يقول: إن النساء ناقصات عقل ودين، وصواب حديث أن النساء فتنة وشياطين، وأن حواء خُلقت من ضلع آدم الأعوج !، وغير ذلك من المفاهيم الذكورية البالية التي جعلت المرأة خلال التاريخ تابعة للرجال، وتشعر بالدونية تجاه الذكور.

أمل: لابد من حركة ثقافية واعية للبُعد الإنساني بشقيه الذكر والأنثى.

وانصرفت كل منهما إلى بيتها، ولكن أفكار المحاضرة بقيت تدور في عقليهما .

الزيارة الرابعة للطبيب

وعلى موعدهما خفت الصديقتان ملهوفتين إلى العيادة واستقبلهما الطبيب بابتسامة صافية من قرارة الصميم ، وهتفت سعاد: مرحبا دكتور.

الطّبيب: أهلا وسهلاً بصديقتي سعاد، كيف حالك اليوم؟.

سعاد: أنا بألف خير ونعمة من الله ﷻ.

الطّبيب: هذا تطور جميل وأنا أشجعك عليه.

سعاد: الفضل لك يا دكتور.

الطّبيب: الفضل لله ﷻ، ثم لك أنت، فلو لم تتفاعلي وتستجيبي للتّعليمات لما استطعت أن أفيدك بأي شيء. والمهم يا صديقتي هل زرت المشفى والأضرحة ؟

سعاد: نعم ، إن الكلمات تعجز عن توصيف ال والانطباعات، التي اقتبستها من الزّيارات والحوارات مع صديقتي أمل، ولكن سأحاول أن أوصل ذلك ما استطعت.

لقد أيقنت أنَّ الحياة جميلة، ولكننا نغمض أعيننا عن رؤيتها، وعلمت أنَّ الإنسان يتقلب في بحر من النّعم تحيط به من كل جانب، ولا يُوجد إنسان على الأرض يخلو من النِّعَم، وإذا فقد الإنسان شيئاً فهو يملك أشياء لا تقدر بثمن وإنها لثروة عظيمة، وقصدت بها صحة النّفس والتّفكير أولاً، وصحة الجسد ثانياً، ونعمة السّمع والبصر والحركة، وغير ذلك من النّعم، التي أنعمها الخالق على النّاس. لقد

علمت أنَّ الحياة الدّنيا فرصة لا تعوض، وهي أساس لحياة الآخرة، فما تزرعه في الدّنيا تحصده في الآخرة.

لقد علمت أنَّ الموت حق، وهو آتٍ لا محالة، فلا تطلبه ولا تسر باتِّجاهه، فسوف يدركك هو، لذا تابع حياتك بفاعلية ونشاط. لقد علمت أنَّ الموت ليس نهاية للحياة، وإنَّما هو مرحلة توقف بين حياتين: الدّنيا والآخرة. فزايلني خوفي من الموت، لقد علمت أنَّ الإنسان كإنسان هو كائن مكرم، ولكن النّاس يُهينون أنفسهم!..ماذا أقول لك يا دكتور؟ لقد رأيت أشياء كثيرة، لم أكن أنتبه إليها سابقاً....

الطّبيب: حسنٌ يا سعاد أنا أقدر عالياً ك ودهشتك وأريد أن أسألك: أما زال العلم يخرب البيوت؟.

سعاد: العلم أساس للحياة الواعية، وللسّعادة الأبدية، وصدق الله ﷻ عندما قال: { قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ }الزمر9 ، وصدق من قال: (**العلم نور، والجهل ظلام**)، وصدق من قال:

العلم يرفع بيوتاً لا عماد لها... والجهل يهدم بيوت العز والكرم

الطّبيب: حسناً لقد تغير موقفك من العلم تماماً، وذلك راجع إلى تغيير مفاهيمك عن الحياة، فاحرصي على تحديث مفاهيمك وتزكية نفسك بصُورة دائمة، حتَّى لا يعلق عليها الصّدأ، صديقتي سعاد: لابد من عرض كثير من الأفكار التي ذكرتها أثناء أحاديثنا السّابقة على

مجهر التحليل، ولكن يصعب ذلك الآن، لذا؛ يجب أن تستمري في عملية الحوار، والاستماع وقراءة أفكار الآخرين، ولكن لا يمنع ذلك من التّطرق إلى مجموعة من الأفكار لأهميتها، ومنها مسألة الزّواج.

صديقتي سعاد: الزّواج سنة الله في الحياة، ويكون من خلال اتّفاق بين اثنين مختلفين في النوع (ذكر وأنثى) لبناء أسرة، فيقوم كل واحد منهما بما يجب عليه تجاه الأسرة، **فالرّجل يقوم بدور الأب، والمرأة تقوم بدور الأم، وكلاهما أساس لرفع سقف الأسرة، لا فضل لأحدهما على الآخر، فكلاهما إنسان من ناحية الجنس، ويختلفان بالنّوع من حيث الذّكورة والأنوثة، وهذا الاختلاف النّوعي أدَّى إلى الاختلاف الوظيفي بينهما لينضما إلى بعضهما ويصنعا صُورة منسجمة متكاملة على الصّعيد الاجتماعي كأب وأم، وعلى الصّعيد النّفسي كرجل وامرأة، وعلى الصّعيد الجسدي كذكر وأنثى.**

صديقتي سعاد: ***لا يُوجد عقل ذكر، وعقل أنثى، العقل لا جنس له، والذي يبنيه إنَّما هو الأفكار والثّقافة والعلم، فالمرأة مثل الرّجل من النّاحية الفكرية والإدراكية، أما طريقة تناول المواضيع والاهتمام بها فيختلفان عن بعضهما، وذلك راجع لاختلاف النّوع والوظيفة بينهما***، وأحيلك في ذلك لقراءة كتاب (سيكولوجية المرأة) لبيير داكو. وكتاب (دراسات في الحياة النّفسية

والاجتماعية) لندرة اليازجي. للتّوسع في ذلك المفهوم، ولتتخلصي من الأفكار السّامة الفيروسية التي أصبت بها من خلال المجتمع والأسرة.

أما الموضوع الثّاني يا عزيزتي:

فهو أنَّ الحياة الدّنيا قائمة على قانون الثّنائية، فيُوجد خير وشر، وعدل وظلم، وصحة ومرض، وغنى وفقر...الخ، وكل واحد منهما يستمد وجوده في الحياة من الآخر، يحركه ويتحرك به ، وإذا انتفى الشّر عن الأرض انتفى الخير معه، وكذلك إذا انتفى المرض انتفت الصّحة، ماذا يعني هذا الكلام؟

إنَّه يعني أن وُجُود العلاقة الثّنائية بين الأشياء أمر لابُدَّ منه، والإنسان يتقلب بين الاثنين، ويقوم بدفع شر أحدهما بخير الآخر، وذلك من خلال العلم، واكتشاف السّنن التي تحكم حركة الثّنائيات، فندفع المرض بواسطة اكتشاف الدّواء، لنصل إلى الصّحة، وصدق الخليفة عمر بن الخطاب عندما قال: ***نفر من قدر الله إلى قدر الله***.

والحياة الدّنيا بهذا النّظام الثّنائي هي دار ابتلاء وفناء، فلا يستمر حال على بعضه، وصدق من قال: دوام الحال من المحال.

وإذا حمل الإنسان هذا المفهوم، ترتب عليه سعادة دائمة، فهو يعلم تماماً أنَّ الغني سوف يموت، والفقير سوف يموت، وكلاهما مبتليان بذلك، فالغنى والفقر، والصّحة والمرض...الخ، هما بمثابة مادَّة امتحانية ينبغي على الإنسان أن يتجاوزها بنجاح، وذلك من خلال الصّبر والعمل على التّغيير إلى الأحسن، قال النّبي الأعظم: (**عجبت**

لأمر المؤمن! إن أمره كله خير، إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له).

أما الموضوع الثّالث عزيزتي:

فهو أنَّ الإنسان ينبغي أن يتعامل مع الحاضر، ويترك الماضي خلف ظهره، ولا يسحبه إلى الحاضر، فمن ضعف الرأي أن يبقى الإنسان سجين الماضي يقيد نفسه بأحداثه، يكرر دائماً: جرى معي كذا، وجرى كذا، وتعرضت إلى كذا، إني حزين كئيبٌ لا أصلح لشيء. فهذا الإنسان حكم على نفسه بالإعدام، ويستطيع أن يغير الحكم عندما يترك الماضي، ويلتفت إلى الحاضر، ويتعامل معه من خلال رؤية مستقبلية، فيسير بثبات وثقة، وهو ينظر إلى النّهاية، التي حددها لنفسه، تُوجّه حركته وتمنعه من الضّلال والضّياع، لأن عمر الإنسان لا يتحمل النّواح والعويل على ما مضى، فالوقت كالسّيف إن لم تقطعه قطعك، ورماك في هامش التّاريخ.

أما الموضوع الرّابع صديقتي:

فيجب أن يتعامل الإنسان مع الممكنات، ولا ينتظر المستحيلات والغيب، وذلك من خلال استخدام ما بين يديّه من أدوات وإمكانات ليصنع منها أدوات أكبر، وإمكانات أعظم، ليحصل على ما يريد. **فطريق الألف ميل يبدأ بخطوة واحدة،** ولكن إتمام الطّريق يتطلب التّحلي بصفة الاستمرار والصّبر، وبذل الطّاقة والوقت الكافي لتحقيق الهدف. وهذا يقتضي منك أن تنظري إلى النّصف المليء من

الكأس وتتعاملي معه. وقديماً قيل: **إذا لم تستطع شيئاً فتجاوزه إلى ما تستطيع، ومن ثم عُد إلى ما لم تستطعه فتستطيعه**. وقيل أيضاً: **إذا لم يُفْتَح لك باب فيُوجد ألف باب غيره.**

أما الموضوع الخامس عزيزتي سعاد:

فعلى درجة من الخطورة، لأنه التّربة الخصبة لتنشيط وتفعيل كل رواسب النّفس السّلبية، وهو أن يستسلم الإنسان للعزلة الاجتماعية، ويكف عن الفاعلية، فسرعان ما تتحرك الفيروسات النّفسية، وتبدأ بنسج شبكتها لتسيطر على النّفس، ويظهر الاكتئاب والتّشاؤم والإحباط، وينعكس ذلك على الجسم، فتظهر العلة كتشنجات في القلب والمعدة والقولون، وتصل إلى الدّماغ فيصاب بصداع شديد، وغير ذلك، فالإنسان هو كائن اجتماعي بالفطرة، وإذا ابتعد عن المجتمع يكون قد خالف الفطرة الإنسانية، وبالتّالي ينتج عن ذلك القلق والاضطراب النّفسي بصُور كثيرة. وقديماً قيل: ***لا تتماوتوا فتموتوا، ولا تتمارضوا فتمرضوا.***

والتّماوت أن يقوم الإنسان بالحكم على نفسه بالانتهاء وعدم الصّلاحية والفاعلية، فينسحب من ميادين الحياة ويكف عن التّفاعل ويستسلم لقيوده التي كبل نفسه بها.

لذلك ينبغي على الإنسان أن ينخرط في العمل الاجتماعي، ويمارس نشاطات فاعلة إيجابية، من لقاءات وحوارات، وحضور محاضرات علمية وثقافية، أو فعاليات رياضية وفنية، والأهم من كل

ذلك هو انتماؤه إلى مُؤسَّسة اجتماعية تعمل في حقل توعية وعلاج الأمور السّلبية في المجتمع، ويشارك طوعاً في أعمال خيرية . لأن هذا العمل الإنساني يفضي إلى تحقيق التّوازن النّفسي، والشُّعُور بالسّعادة من خلال جعل الآخرين سعداء، لأن من يغرس السّعادة بين النّاس، يكون أول من يقتطف ثمارها اليانعة، ويشعر أن له أهمية ودوراً في الحياة يقوم به فيمتلئ أملاً ونشاطاً.

صديقتي سعاد !! حان الوقت لأن تعودي إلى عملك وتمارسي فاعليتك الاجتماعية، ولقد بلغت من القوة حداً يجعلك تجتمعين مع الناس دون خوف أو شعور بالفشل فقومي ابتداءً من يوم غدٍ بالرجوع إلى عملك، وقابلي زملاءك بقوة واعترفي بخطئك، فالاعتراف بالخطأ يدل على قوة الإنسان وتوازنه النفسي، والإنسان يتعلم من أخطائه، ولا يفوتني أن أذكرك هنا أنك لست مضطرة لكشف عيوب أبي زيد أو شن حملة مسعورة ضده ، فإنك إن فعلت سترسخين شعور الهزيمة في نفسك كلما التقت عيناك بعينيه ، إنها تجربة طائشة ومرت بسلام ، فترفعي عن الصغائر ، وانبذي الحقد الأعمى وقدمي طفلتك باعتزاز وحب لوسطك الاجتماعي والمهني ، فهذه الطفلة هي المعطى الإيجابي الوحيد لمستنقع من السلبيات الآسنة ، وكما اتفقنا ظلام الماضي أصبح وراءنا ، والمستقبل يتلألأ أمامنا ، فلنشعل شموع الأمل ولنمض معاً إلى غدنا المجيد السعيد .

سعاد: ما أجمل هذا الكلام ، لقدكانت فكرة الرجوع إلى العمل تراودني، ولكن كنت أستبعدها خجلاً من لقاء زميلاتي وزملائي، ولكني بعدما سمعت قولك وما استجد معي من تفاعلات ثقافية قررت أن أعود وأُجابه الواقع وأُصلح ما أفسَدت .

وانصرفت أمل وسعاد وهما تتناقشان في كيفية العودة إلى العمل والاجتماع مع أبي زيد زوج سعاد سابقاً .

رجوع سعاد إلى عملها

دخلت سعاد مكان عملها السابق فتفاجأ زملاؤها وزميلاتها، وظهرت عليهم جميعاً علامات الدهشة والاستغراب، ولكن سرعان ما بددت سعاد اكفهرار الجو بإلقاء السلام مع ابتسامة صادقة كبيرة استطاعت من خلالها توصيل رسالة إلى زملائها محتواها أن سعاد قد رجعت بشخصية قوية ومرحة ومحبة للحياة، والتفَّ حولها الزملاء يرحبون بها بعبارات جميلة تنضح بعبير المحبة والمودة ودفء العاطفة .

ودخلت سعاد إلى مكتبها واستلمت العمل، وبعد ساعات دخل إليها أبو زيد، وقد علم متأخراً برجوعها إلى العمل.

وقال متهكماً: أهلاً وسهلاً! بسعاد الحبيبة! لقد نَوَّرت الشركة ! والله زمان ما ظهر هذا القمر ! وقهقه مخفياً سخريته.

فردت سعاد بهدوء: اسمع أبا زيد ! لقد انتهى ما كان بيننا، وقد رجعت المياه إلى مجاريها الطبيعية، وأنا لا أكن لك أي ضغينة ، ولسنا في معركة ، فإذا سمحت لا تدخل إلى مكتبي أبداً دون طلب مني، وعندما تدخل تتكلم معي حسب المقام الوظيفي، وبما يتعلق بالعمل فقط، وأي مخالفة لذلك سوف أرفع كتاباً إلى المدير العام أتهمك فيه بالتحرش وقلة الأدب معي، وقد أُعذِر من أُنذِر، فالزم حدودك، وانصرف الآن.

دُهش أبو زيد من هذه الحدة والجدية والرزانة ، وارتبط لسانه لا يدري ماذا يقول أو يرد عليها لقد توقع أن يرى امرأة كسيرة مهزومة ، تُلقي بنفسها على قدميه مستعطفة ، وخاب ظنه وعرض نفسه للمهانة فسارع بالانصراف حتى لا يراه أحد في هذا الموقف المخزي .

واستمرت سعاد بممارسة عملها، ومضت أيام ،وأيام، وهي تزداد قوة وحيوية ونشاطاً، وتغيرت علاقاتها الاجتماعية مع أسرتها وصديقاتها وزملائها في العمل إلى الأحسن والأرقى . وحان موعد حضور الجلسة الأخيرة مع الطبيب فاتصلت بصديقتها أمل وتواعدتا على اللقاء عنده .

الزيارة الخامسة للطبيب

دخلت أمل وسعاد عيادة الطبيب، فرحب بهما كعادته وطلب منهما الجلوس، وتوجه بخطابه إلى سعاد قائلاً:

صديقتي سعاد ! هذه جلسة العلاج الأخيرة ، ولكننا سنبقى على اتصال دائم كصديقين ! واسمحي لي أن أعرض عليك بضعة مواضيع بصورة مختصرة وسأعتمد على فهمك وثقافتك وتفاعلك مع مضامينها.

الموضوع الأول عزيزتي سعاد:

هو أن تحرصي على مُمارسة الرّياضة بصُورة جماعية، ولو كان ذلك في البيت، من خلال الاتّفاق مع بعض الصّواحب أو الجارات، لأنَّ المشاركة الجماعية تطرد الوساوس النّفسية كما يطرد الجسم السّموم، وكل من يمارس الرّياضة الجماعية يشعر بخفة في نفسه ونشاط في جسمه، وكأنه يطير فوق السحاب، وواظبي على أن تشاركي النّاس أفراحهم نفسياً وعملياً من خلال الغناء أو الرّقص، ودعي نفسك تفرح وتضحك!.

الموضوع الثاني صديقتي:

وهو من أهم الأمور ألا وهو صلة الإنسان بخالقه، فالتّدين عند الإنسان فطرة، لذلك النّفس تطلب السّمو والاتّصال بخالقها، وذلك من خلال الإيمان وأداء الصّلاة، فتظهر التجليات الرحمانية عبر أمواج الفيض الإلهي الذي يحمل المراحم الروحية السامية ، والإيمان يلزمه

التّفكير والعلم والتّحديث المستمر للمفاهيم، وأداء الصّلاة هي حالة تعكس هذا الإيمان في النّفس بشُعُور القوة، عندما تتصل بصاحب القوة الأحد الصّمد، فتسري في نفسية الإنسان المتصل بالله حالة الطّمأنينة والسّكون والاستقرار النّفسي، ليظهر في سُلُوكه الاجتماعي كإنسان فاعل، محب لكل النّاس. ينشر السّعادة والمحبة التي تنبع من قلبه، فلا يعرف حسداً أو حقداً أو تشاؤماً أو اكتئاباً، إنَّه سعادة وأمل ومحبة يمشي على الأرض، حتَّى أنَّ المرضى عندما يشاهدونه تسري إليهم روح التّفاؤل والأمل ويشعرون بطاقة تفعم نفوسهم قوة، وتدفعهم إلى الفاعلية، وعدم الاستسلام والخنوع للأمراض. لذا؛ يجب أن تتعهدي نفسك بالاستمرار بعملية الصّلة مع الخالق المدبر.

الموضوع الثّالث عزيزتي:

ينبغي أن تنظري للأمر من عدة جوانب، فلكل أمر جوانب إيجابية وأخرى سلبية، فإن غلبت الصّفات الإيجابية على الأمر يكون الأمر حسناً، وتستطيعين أن تتكيفي معه، وهذا يقتضي منك تغيير طريقة التّفكير السّلبية إلى الإيجابية، والقيام بعملية الإنصات للآخرين وفهم ما يريدون أو ما يشعرون به، والنّظر إلى الموضوع من وجهة نظرهم، ثم العودة إلى محاكمة الأمر حسب وجهة نظرك، التي هي في النّهاية تبقى وجهة نظر، ولكل إنسان رأيه ، وما من عاقل في هذا الكون يزعم أنه وقع على كنز الحقيقة دون سواه .

الموضوع الرابع صديقتي سعاد:

هو أن يقوم الإنسان بمراقبة نفسه، كما يراقب جسمه، فأي عَرض يظهر في الجسم يوحي باضطراب في أداء وظائفه الفيزيولوجية، يدفع الإنسان إلى اكتشاف السّبب، ومعالجته مُباشرة قبل أن يستفحل المرض وينتشر في الجسم، وتصعب معالجته، وقد يودي بحياة الإنسان، وكذلك ما يمس النّفس من أفكار سامة سرعان ما تغوص إلى أعماقها السحيقة، فتصيبها بالقلق والاضطراب، فإذا تركها الإنسان وأهملها تمكنت و استفحلت، وسيطرت عليه، وصارت مزمنة، يصعب علاجها، فتهلكه. لذا يجب المسارعة إلى تحليل الأفكار وتركيبها وربطها وفهمها بصُورة موضوعية، فإن كانت إيجابية، سمح الإنسان لها بالدّخول إلى نفسه، وإن كانت سلبية، يبقيها خارج نفسه، ولا يسمح لها بالدّخول، وبالتّالي يحافظ على نفسه سليمة معافاة، لأنَّ الإنسان لا يتأذى من الأحداث التي تحصل معه أو أمامه، لأنها تحدث خارج نفسه، وإنَّما الأذى يأتي من كيفية استجابة النّفس لهذا الحدث، ومن هذا الوجه تشاهدين موقفين مختلفين من اثنين لحدث واحد، أحدهما إيجابي، والآخر سلبي، رغم أنَّ الحدث واحد! ولكن الاستجابة مختلفة، ومرد ذلك راجع للمفاهيم التي يحملها الإنسان في نفسه.

الموضوع الخامس عزيزتي سعاد:

ملخصه في قصة سوف أقصها عليك:

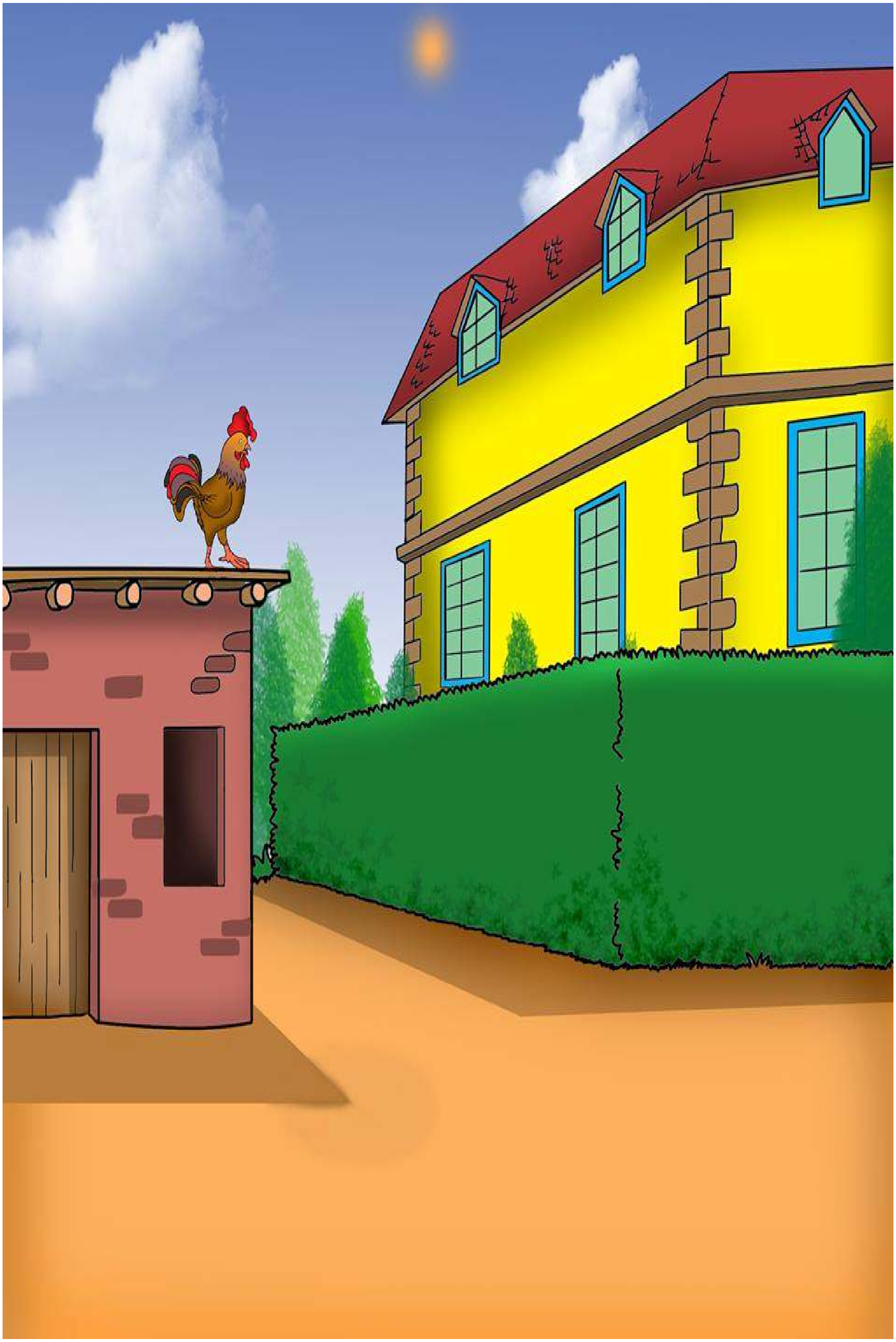
يُحكى أنَّه كان رجلٌ غني يسكن في دار كبيرة، وله خدم وحشم، وبجانب بيته كان يسكن رجل فقير، وعنده في باحة البيت ديك يصيح فجر كل يوم، وكان الغني يسهر إلى وقت متأخر قريب من

الفجر، وما أن يطبق أجفانه مستسلماً لسلطان النوم حتى يصيح الدّيك، فيغضب وينزعج ويتذمر، وقرر في نفسه التّخلص من هذا الدّيك المزعج، وفي الصّباح، نادى رئيس خدمه، وأمره أن يذهب ويشتري الدّيك بأي ثمن من الرّجل الفقير، ويطبخه على الغداء. فذهب رئيس الخدم إلى الرّجل الفقير، وعرض عليه شراء الدّيك منه بأي ثمن يرضيه، فرفض الرّجل الفقير . فظن رئيس الخدم أن سيده يريد الدّيك ليأكله فقط، فقال في نفسه: أذهب إلى السّوق وأجلب ديكاً وأطبخه! وفعلاً هذا ما حصل، وقام بطبخ الديك، وقدمه في وقت الغداء لسيده! الذي نظر إلى الدّيك مبتسماً!! وأهوى بيده عليه يفرق لحمه عن عظمه، وتناوله نهشاً!! وهو يحلم بنوم هادئ دون إزعاج، لأنَّ الدّيك اللئيم صار في بطنه. وفعلاً نام تلك اللّيلة هانئاً ملء أجفانه، وتبعتها ليال أخرى، دون أن يزعجه صوت الدّيك. وفي أحد الأيام، وفي وسط النّهار، سمع الغني صوت ديك جاره الفقير، فاستغرب!! وقال لرئيس الخدم: هل قام جارنا بشراء ديك آخر غير الذي أكلته على الغداء؟ فقال رئيس الخدم: لا يا سيدي! لم يشتر غيره، وهذا الدّيك الذي يصيح هو الديك القديم بشحمه ولحمه .

فقال الغني: عجباً! ألم أطلب منك أن تشتريه وتذبحه! وقد قدمت لي على الغداء ديكاً؟

فقصَّ عليه رئيس الخدم ما حصل معه تماماً.

فدهش الغني وقال: إذاً الدّيك لم يمت! ولم يكف عن الصّياح! فكيف لم أعد أسمعه؟



فالإنسان، إذا انزعج من شيء يحصل في الواقع فأمامه احتمالان:

الأول:يقوم بتغيير وإصلاح الحدث أو الشّيء إذا كان يستطيع ذلك، أو امتلاك أدوات لتغيير الحدث.

الثّاني: إذا لم يستطع تغيير الحدث،ولا يستطيع امتلاك الأدوات المناسبة لذلك، فعليه بحذفه من نفسه ورميه وراء ظهره، وعدم العيش مع القلق والاضطراب والحزن، ومتابعة الحياة بصُورة طبيعية (**ليس كل ما يحدث لك يزعجك، وإنَّما ما تعتقد أنَّه يزعجك هو الذي يزعجك**).

صديقتي سعاد العزيزة: إن الموضوع حافل، ويطول شرحه، وغير مطلوب من الإنسان أن يحل مشاكل قديمة. لذا قومي بترسيب أحداث الماضي، ولا تثيريها!! دعيها تركد في القاع، وإذا استطعت أن تخرجيها، قومي برميها كما يرمي مستخدم الكومبيوتر المواد التي لا تلزمه في سلة المهملات، أو احذفيها دون رجعة، وتعاملي مع الحاضر وفق رؤية مستقبلية جديدة، وحافظي على عملية تحديث نفسك بصُورة دائمة، ومارسي الحوار والتّأمل والتّحليل والتّركيب، والرّبط للأفكار، وأنصتي للآخرين واقرئي أفكارهم، وانظري من خلال وجهات نظرهم، كيف يرون الأمور بصُورة مختلفة.

عزيزتي سعاد: لقد جمعت لك مجموعة من الحكم والقواعد السُّلُوكية والنّفسية، لتساعدك في عملية التّزكية لنفسك، فاقرئيها بهدوء، وفكري بها وحاولي تطبيقها.

والآن عزيزتي سعاد: قومي وانطلقي إلى الحياة؟ فابنتك تنتظرك، وهي بحاجة لك أماً قوية واعية، لتستمد منك قوتها، قومي وانهضي يا سعاد؟ وحلقي في فضاء الحياة! وطيري عالياً، وانظري إلى لوحة الكون كم هي جميلة ومنسجمة ومتكاملة فخذي دورك فيها كعنصر جمالي فاعل إيجابي، واصنعي لوحتك الخاصَّة بك وفق نظام اللّوحة العام، وحافظي على استقبال شروق الشمس في كل صباح.....

وقامت سعاد منتصبة القامة، تنظر بثبات، متوردة الخدين، مبتسمة ابتسامة عريضة!! ومدت يدها نحو الدّكتور قائلة: إني شاكرة صنيعك معي، لقد أنقذتني من الوحل والظلمات التي كادت أن تبتلعني. وصافحت يد الدّكتور بشدة وحرارة، وودعته على أمل اللّقاء في أقرب وقت، والاتِّصال به إذا لزم الأمر، وانصرفت، ومعها بضع ورقات، نظرت إليها بحب ورجاء، وقرأتها بشغف وتأمل وسرور، وكأنها لم تقرأ في حياتها قط:

{ إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ }الرعد11



أهم الأمور في علاج الاكتئاب

1- الخروج من العزلة.

2- ممارسة رياضة خفيفة خارج البيت مع بعض الأصدقاء.

3- حضور حفلات موسيقية والمشاركة فيها.

4- فتح حوارات حرة مع الأصدقاء.

5- حضور فعاليات ثقافية(محاضرات،أفلام، معرض كتب،..)

6- تحديث المفاهيم والأفكار.

7- ممارسة عمل هادف يملأ معظم وقت الإنسان.

8- استحضار مقام الخلافة في الأرض للإنسان.

9- استحضار مفهوم التكريم للإنسان من قبل الخالق.

10- استحضار مفهوم أن الدنيا دار ابتلاء وفناء والآخرة خير وأبقى.

11- استحضار مفهوم الشكر والصبر.

12- استحضار مفهوم الصلة بالخالق.

13- استحضار مفهوم أن الإنسان محترم كإنسان.

14- استحضار أننا من تراب وإلى تراب ونُبعث من تراب.

15- استحضار مفهوم أن الموت ليس نهاية للحياة، بل هو بوابة لحياة أخرى.

مجموعة من الأفكار التّوجيهية

1 . لا تنتظر الأحداث والزّمن لتحقيق هدفك أوحل مشكلتك.

2 . قم اخلق الظُّرُوف المناسبة لتحقيق هدفك.

3 . حين تعتقد أنَّ المشكلة هناك في الخارج، فإن طريقة تفكيرك هي بحد ذاتها مشكلة.

4 . لا تكن مادَّة خام لعمل الآخرين.

5 . لا تكن دمية يلعب بها الآخرون.

6 . لا تكن أفعالك ردة فعل للآخرين.

7 . رحلة الألف ميل تبدأ بخطوة واحدة.

8 . إذا لم ترد شيئاً فلا تحزن على ذهابه.

9 . لا تتفاجأ من عدم وُصُولك وأنت لم تسر بعد.

10 . إذا كنت تسير إلى الأمام فلا تلتفت إلى الخلف.

11 . لا يستطيع أي إنسان أن يؤذيك ما لم تسمح له بذلك.

12. ما يؤذينا ليس ما يحدث لنا بل كيفية استجابتنا للحدث.

13 . لا يستطيع أي إنسان أن ينزع احترامك لنفسك منك ما لم تتنازل عنه.

14 . لا تنتظر من الآخرين الاعتناء بك؟ فلكل شخص همومه.

15 . كن جزءاً من الحل، لا جزءاً من المشكلة.

16 . أن تحب غير الحب، إذ الأول فعل والآخر شُعُور، والعلاقة بينهما جدلية.

17 . النّوايا الطّيبة لا تؤثر بالعواقب سلباً أو إيجاباً.

18. الإنسان يسيطر على سُلُوكه، ولكن لا يسيطر على عواقبه.

19. سأل صديق صديقاً عن رجل مات كم ترك خلفه؟ فأجابه: لقد ترك كل شيء!.

20 . إذا فقدت شيئاً فمازلت تملك أشياء.

21 . للحياة أبواب كثيرة، فلا تقف عند المغلق منها.

22 . إذا لم تستطع شيئاً، فتجاوزه إلى ما تستطيع.

23 . إزالة ألم الرّأس لا يكون بقطعه.

24 . إن التّسويف والتّأجيل للعمل، هو في الحقيقة إلغاء مقنع له.

25. الشّدة والعنف يولدان الكراهية والتّعصب، والرّفق والحلم يولدان المحبة والتّسامح.

26 . عامل النّاس كما تحب أن يعاملوك.

27. الحياة والسّعادة حق للجميع فشارك النّاس بالحياة والسّعادة.

28 . إن السّعادة والشّقاء مفاهيم نابعة من داخل الإنسان وليس من خارجه.

29 . تصُورك للشّيء لا يعني بالضّرورة حقيقته في الواقع.

30 . كن متسامحاً قابلاً لاعتذار الآخرين.

31 . تجربتك لا تمثل تجربة الإنسانية كلها.

32. قناعتك غير ملزمة للآخرين.

33 . أنت لست نهاية التّاريخ ومحوره.

34 . إذا لم تنزل إلى حوض السّباحة فلن تتعلم العوم.

35. أن تنجح بعلاقتك مع من هم بقربك (أمك، أبيك، أخيك، أختك، زوجك، أولادك) أفضل بكثير من أن تصنع نصائح ومشاريع لحل مشاكل آلاف النّاس البعيدين عنك.

36 . الثّقة تأتي من التّعامل، وليس من التّزامن.

37 . إن فاتك شيء وأنت صغير، فاهتم بما ينفعك وأنت كبير.

38 . لكل مرحلة زمنية من العمر متطلبات، فقم بأداء متطلبات المرحلة التي أنت فيها.

39 . التّفكير غير مُرتبط بالعمر، فهو متاح للصّغير والكبير.

40 . إذا أردت أن تفهم موضوعاً فحاوره مع آخر.

41 . من لا يتقدم يتقادم.

42 . لا تعش في الحفر، وإنَّما اصعد إلى القمم.

43 . لا تكن من الكائنات اللّمامة، وكن من الكائنات الفاعلة.

44 . الأحداث الماضية تاريخ، فلا تعش فيه.

45 . الحجر المتدحرج لا ينبت عليه شيء.

46 . لا تتعلم مالا يفيدك في حياتك العملية والمستقبلية.

47 . لا تتصادم مع سنن الكون، وإنَّما امتطها وسر بها حيث تشاء.

48 . ليس المهم أن تعمل، وإنَّما المهم أن تعرف لماذا تعمل.

49 . معظم النّاس يزدحمون في السّهول، والقلة منهم يصعد إلى القمم.

50 . ينبغي تحديد الأهم فالأهم بالنّسبة لنا، حتَّى لا نسير في طريق مخالف لما نريد، ومن ثمَّ نحصل على نتائج ونجاحات فارغة، ليست هي ما نريد، وليست هي على درجة من الأهمية بالنّسبة لما نريد. (سلم الأولويات).

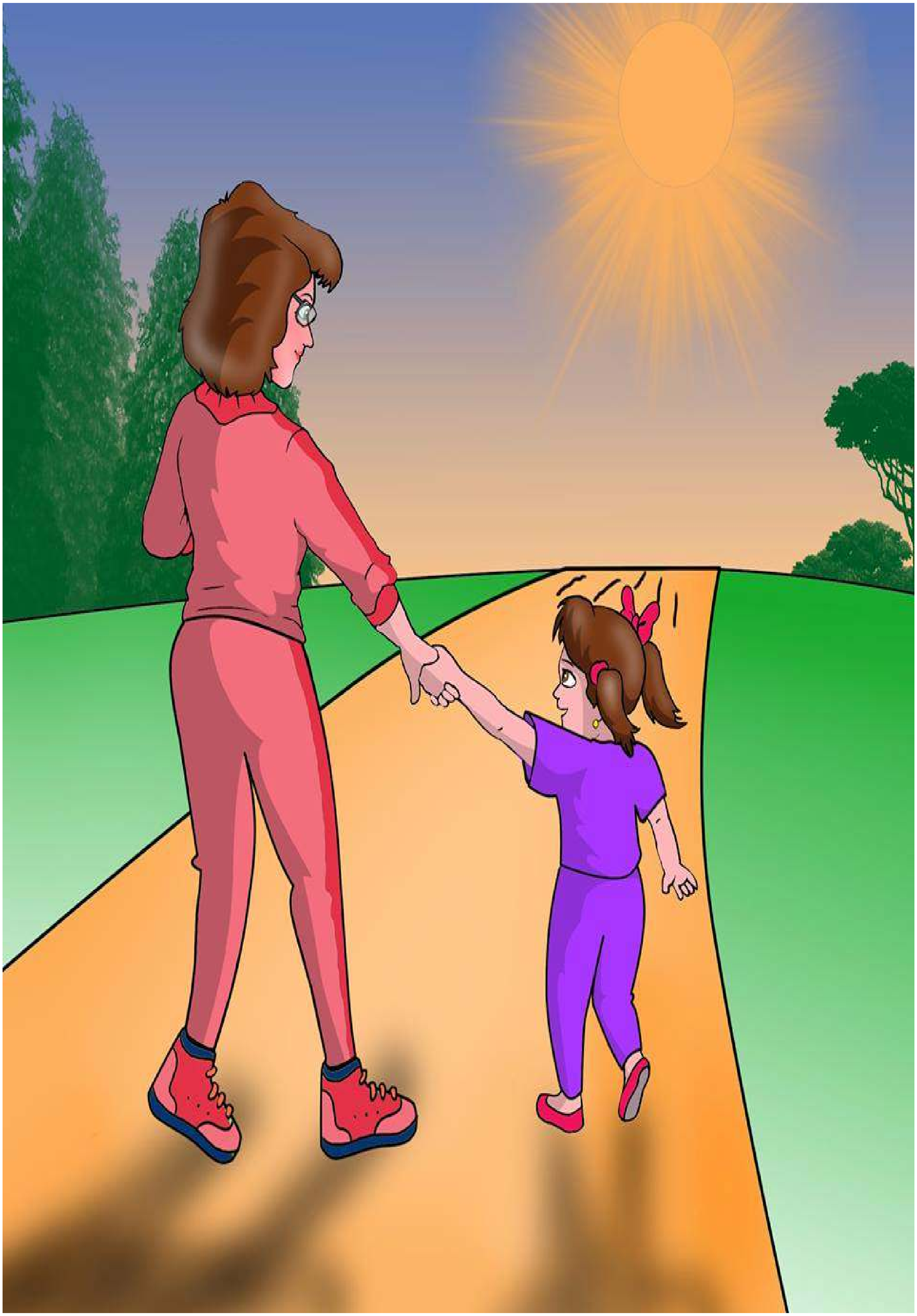
البدايـة

نحو حياة جديدة إيجابية

ملؤها المحبة والتّفاؤل

والسّلام والإخلاص الملتزم

والصّداقات الطّيبة.





سامر بن محمد نزار إسلامبولي

تولد: دمشق... سورية.. / 1963/م

باحث ومحاضر في الفكر الإسلامي .

عضو في اتحاد الكُتَّاب العرب

نُشر له مقالات في مجلة العالم، ومجلة إسلام 21، ومجلة شباب لك، والأسبوع الأدبي، والوقت البحرينية، والمثقف .

مؤلفاته حسب ترتيب ظهورها

1- علم الله وحرية الإنسان ... . دمشق – دار الأهالي / 1994 / م

2- دراسة نقدية لمفاهيم أصولية .... دمشق – دار الحكمة /1995/ م

(الآحاد، الإجماع، النسخ) ....ط 2/ / دار الأوائل /2002/ م

3- الإلوهية والحاكمية ....دمشق دار الأوائل /1998 / م

4- تحرير العقل من النقل ....دمشق دار الأوائل /1998/ م

وقراءة نقدية لخمسين حديث من البخاري ومسلم

5- المرأة (مفاهيم ينبغي أن تصحح)........دمشق دار الأوائل /1998/ م

6- ظاهرة النص القرآني تاريخ ومعاصرة ...دمشق دار الأوائل /2002/ م

(رد على كتاب: النص القرآني أمام إشكالية البنية والقراءة)

7- القرآن بين اللغة والواقع ....دمشق دار الأوائل /2005/ م

تقديم الأستاذ د. سمير إبراهيم حسن .عميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية في دمشق.

والأستاذ: د . محمد الحبش . مدير مركز الدراسات الإسلامية في دمشق .

8- دراسة إنسانية في الروح والنفس والتفكير. دار الأوائل، ودار يعرب 2008 م، تقديم الأستاذ: جودت سعيد، والأستاذ: ندرة اليازجي

9- مفهوم السنة غير الحديث /2008 م

10- غطاء رأس المرأة أو شعرها حكم ذكوري وليس قرآنياً / 2008م
11- القرآن من الهجر إلى التفعيل.الأوائل 2008م
12- علمية اللسان العربي وعالميته. تقديم الدكتور مازن الوعر /
13- ميلاد امرأة (قصة نفسية واجتماعية).
14- حوارات ثقافية. /
15- أفكار فلسفية وفتاوى أزهرية .مجموعة قصص
16- مفاهيم ثقافية.2011
17- اليهودية انغلاق فكري وإرهاب اجتماعي.
18- نبي الإسلام غير نبي المسلمين.2011
19- المشروع الثقافي الراشدي، ويليه الإرهاب إيدز العصر.
20- أسطورة نزول النبي عيسى المسيح أو شبيهه
21- الإلحاد موقف وليس فكراً

عنوان الباحث:

مصر – القاهرة

s.islambouli@gmail.com

mob:0020 11 41025253